

دكتور محمد السامرائي

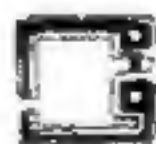
الادارة في المغرب الأقصى

(١٧٢ - ٣٧٥ هـ)

حقائق جديدة

الأندلسية في المغرب الأقصى (١٧٢ - ٣٧٥ هـ) حقائق جديدة

دكتور محمود اسماعيل



مكتبة الفلاح
للشعر والتوزيع

Shiabooks.net

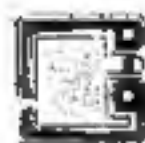


حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٠٩ هـ ١٩٨٩ م

مكتبة الفلاح - الكويت
للشؤون التوزيع



شارع بيروت مقابل بريد حولي القديم

تلفون: ٢٦٤٧٧٨٤

ص.ب: ٤٨٤٨ الصفاة الرمز البريدي 13049 الكويت

برقيا: لفاتكو



فهرس الموضوعات

۷	إهداء
۹	مقدمة

الباب الأول قيام دولة الفوارة

۲۱	الفصل الأول : الشيعة الزيدية في الشرق الإسلامي
۳۷	الفصل الثاني : المغرب الأقصى قبيل قيام دولة الأدارسة
۴۹	الفصل الثالث : الدعوة الزيدية في بلاد المغرب
۵۹	الفصل الرابع : تأسيس دولة الأدارسة

الباب الثاني سياسة الفوارة الداخلية

۷۷	الفصل الأول : طور الازدهار
۹۱	الفصل الثاني : طور الانهيار

الباب الثالث

مجلد قسمة الدولة الحجازية

١١٣	الفصل الأول : سياسة الإدارة إزاء العباسيين والأغلبية .
١٤١	الفصل الثاني : سياسة الإدارة إزاء دول الخوارج .
١٦٣	الفصل الثالث : سياسة الإدارة إزاء أموي الأندلس والفاطميين .
١٨٩	خاتمة .
١٩٥	المصادر .

أهـدأ

لمِيتة الإله
ومجـتلى سـناه
فاسـلـتي أهـدتي يوماً من رباها نرجسـه
أهدي ثراها زهر آس من شذى الأدارسة

مقدمة

بدأت فكرة تأليف هذا الكتاب منذ عشرة أعوام؛ حين انتدبت من كلية الآداب بفاس لإلقاء محاضرات على طلبة الدراسات العليا بكلية آداب الرباط عن دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى.

وحيث شرعت في إعداد مادة المحاضرات، أيقنت أن المصادر المتاحة لا تفي بما يسعف في تقديم صورة واضحة عن الموضوع. كما أن الكتابات الحديثة العربية والاستشرافية لم تؤرخ قط لدولة الأدارسة في مؤلفات مستقلة بذاتها. اللهم إلا رسالة قدمت عن الموضوع في الستينات بكلية دار العلوم بالقاهرة لنيل درجة الماجستير، لا تعدو أن تكون صياغة لغوية حديثة لنصوص قديمة جد محدودة.

أما كتابات الباحثين المحدثين من العرب والمستشرقين - الذين اهتموا بتاريخ المغرب - فقد عرضت للموضوع في عجالة ضمن تاريخ المغرب العام. وإذا كانت الكتابات العربية تنهج نهجا منقبيا ثمجيدنا تعبيرا عن سمة التعاطف مع آل البيت؛ فإن كتابات المستشرقين الفرنسيين - كجوتيه وثيراس وفورنل وجوليان وجورج مارسيه وغيرهم - تقلل من شأن الأدارسة وتفسر تاريخهم من خلال المذهبية والإثنية والإقليمية والبطولة الفردية. وقد نبهت إلى هذه المزالق في دراسة بعنوان «ملاحظات حول تاريخ الأدارسة»^(١) أثارت في حينها من الحوار ما

(١) نشرت الدراسة في المجلة التونسية «الحياة الثقافية» عدد ٥، أكتوبر ١٩٧٩.

رسخ فكرة الإقدام على دراسة الموضوع رغم محاذيره.

ومن حسن الحظ أن نصوصاً جديدة صدرت تباعاً لتكشف عن الكثير من الغموض وتضع نهاية «المؤامرة الصمت» التي حبكت قديماً وحديثاً حول تاريخ الإدارة. تلك المؤامرة التي فضحها باحث^(٢) مغربي جاد بالنسبة لموقف المؤرخين القدامى؛ حين فسرها في إطار المصادرات المعرفية بين مؤرخي السنة ومؤرخي الشيعة في العالم الإسلامي الوسيط.

ومن جانبنا نرى أن مدرسة الاستشراق الفرنسي عزفت - إرادياً - عن التاريخ «لدولة» أصلت مفهوم «المخزن» في تاريخ المغرب من وقت مبكر انطلاقاً من نظرة استعمارية ترى في بلاد المغرب «سيية» وجب أن تستعمر، تأسيساً على نظرية «حق الغزو» و«المشاع المستباح» التي ظل معترفاً بها في القانون الدولي حتى عام ١٩٤٥ م.

على أن اقتحام الموضوع لم يخل من مصاعب. إذ كيف يمكن التأريخ لدولة إنعدم أو كاد «إطارها المصدري»؟ هذا السؤال سبق أن طرحه الباحث السابق الذي أثبت أن كتب الإدارة الأصلية أهملت قديماً حتى ضاعت إن لم يكن أتلفت عمداً. ونؤكد - من جانبنا - أن كل المصادر التي عرضت لبعض جوانب الموضوع فضلاً عن اضطرابها واختلافها حتى فيما يتعلق بالأحداث والوقائع الأساسية؛ دبجت في عصر متأخر.

وهذا يفسر لماذا أهمل المؤرخون المشاركة القدامى - وعلى رأسهم الطبري - التأريخ للإدارة رغم تصنيفهم حوليات عالمية. فالقليل النادر الذي أوردوه

(٢) راجع: عبداللطيف السعداقي: إدريس الأول مشي، دولة وبعث دعوة. فصله من مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، عدد ٤، ٥ سنة ١٩٨٠ - ١٩٨١.

بصددهم مضرب بالتحامل المذهبي حتى وصل الحال إلى حد التكفير والتشكيك في أنسابهم. أما المغاربة القدامى فقد أسهموا في مزيد من التضييب عن طريق نسج هالات من البطولات والخوارق والكرامات على آل إدريس. ولم يقدم المتحاملون والمشايعون عنهم معا أكثر من سير ذاتية ذات مسوح أخلاقي. ناهيك عن أساليب الاختلاق والتزييف والتحريف والانتحال والافتعال. وحسبنا أن تاريخ ابن أبي زرع - وهو أوفى المصادر المتأخرة بعامة ومنه نقل كل من جاء بعده - يورد أحداثا ووقائع يزعم بالباطل أنه نقلها عن أسلافه^(٣).

إن «فساد» ونُدرة المادة التاريخية الأصلية عن بني إدريس تبرر حكم أحد الدارسين الثقة في تاريخ المغرب وحضارته بأن «الكثير من تاريخ الأدارسة يتسم بالغموض. كما أن الكثير من الأدب المتوافر الذي وصلنا أدب تمجيدي النزعة»^(٤).

أما والحال هكذا فلم يكن بد من الانتظار المترقب لظهور مادة جديدة تبرر اقتحام الموضوع لتقديم مؤلف طموح بصدده. ولعل هذا يفسر لماذا طالت فترة الانتظار قرابة أعوام عشرة تمثل الزمن الفاصل بين بداية الفكرة ونهاية الإنجاز.

من حسن الطالع أن مادة تاريخية جديدة توالي صدورها خلال تلك الحقبة. منها مخطوط لمؤرخ مجهول يحمل عنوان «مفاخر البربر»^(٥) يتضمن مادة قيمة - رغم ضآلتها - تفيد في إجلاء بعض الغموض وتحيط اللثام عن حقائق جديدة.

(٣) زعم ابن أبي زرع أنه نقل روايات عن البكري وصاحب كتاب الاستبصار. وبالعودة إلى هذين المصدرين لم نجد ما يثبت ذلك.

(٤) هوبكنز: النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى، تونس ١٩٨٠، ص ٣٨.

(٥) توجد نسخة منه بالمكتبة العامة بالرباط.

ومنها نصوص نشرت بمجلة الوثائق المغربية بالغة الأهمية في الكشف عن الدعوة الزيدية وعلاقتها بدعوة المعتزلة ونصائرها معا في التمهيد لقيم الدولة الإدريسية عام ١٧٢ هـ. فخطبة إدريس الأولى التي ألقاها على القائل التي ديعته ثم عن التأثير الهام للمعتزلة في الدعوة الإدريسية فكريا وسياسيا. ورسائله إلى أعوانه بمصر التي يأمرهم فيها بالإعداد والاستعداد لإقامة الدولة لزيدية بمصر؛ تصع نهاية للفكرة الشائعة الخاطئة بين المؤرخين عن قيام دولة الأدارسة صدفة ودونما إعداد دعائي وسياسي سابق.

ومنها تحقيق مخطوط للصاحب إسماعيل بن عباد يحمل عنوان: «نصرة مذهب الزيدية»^(٦٦) كشف الكثير من الخبايا عن الدعوة الزيدية في لعالم الإسلامي كتطبيق عملي للفكر السياسي الزيدي واستنادا إلى هذه الحقائق جديدة أمكن انتزاع ثقة لقيم دولة الأدارسة

كما أمكن معالجة موضوع سياستها الداخلية - فضلا عن الخارجية - استناد إلى نصوص جديدة أيضا لمؤرخ الأندلس الأشهر ابن حبان فضلا عن قطعة من كتابه «المقتدر» تتعلق بمصر الإمارة في الأندلس، وأخرى بعهد الخليفة الأندلسي الحكم المنصور؛ فاجأنا المستشرق الإسباني «شانيثا» بقطعة جديدة تتعلق بمصر لخليفه المنصور^(٦٧) وتدحر معلومات جديدة وثرية عن تاريخ الأدارسة الأواخر الذي كان شبه مجهول منما وقد أفاد الباحث بها في التوزيع المستوفي - لأول مرة فيها برعم - لأوضاع المغرب الأقصى في عهود الأدارسة الأواخر فضلا عن علاقاتهم بالقاطنين وأموي الأندلس؛ وهو أمر سقنا به بعض الدرسين من تلامذتنا المحناء - كما موضح في موضعه

(٦٦) جملة يدت. يحيى حسن ومعد. تعداد سنة ١٩٧٧

(٦٧) نشر بمعد سنة ١٩٧٩

وإلى جانب هذه المادة الجديدة اعتمدنا على مصدر وثائقي آخر لم يوظف
سلفه بالقدر الذي يتناسب وأهميته. أعني مجموعات النقود الإدريسية التي صنفها
الأستاذ Eustache^(٨) والأستاذ Colin^(٩) وهي فضلا عن أهميتها في دراسة التاريخ
الإدريسي اقتصاديا واجتماعيا؛ لا تخلو من أهمية جلى بالنسبة لتاريخهم السياسي
والإداري والمذهبي.

وإلى جانب هذه المادة الجديدة عولنا على مطان أخرى معروفة لم يقد منها
الدارسون السابقون ربما لأنها ليست مصادر تاريخية أعني كتب الجغرافيا والرحلة
التي تضمنت معلومات جد هامة افتقرت إليها المصنفات التاريخية. وليس أدل
على هذه الأهمية من أن جغرافيا كالمقدسي أورد إشارة عن الدعوة الزيدية -
الاعتزالية كانت من وراء فتح آفاق جديدة لدراسة قيام دولة الإدارة. ومع
ذلك مر عليها الدارسون مرور الكرام لقد كان أول من نبه إلى دور المعتزلة في
الدعوة الزيدية إلى حد الدمج بين الدعوتين معا؛ وهو ما اعتمدناه وأثبتنا صحته
في ضوء النصوص الأخرى الجديدة التي عولنا عليها.

ويكتسي كتاب «المغرب» للبكري منزلة خاصة بالنسبة لكافة مباحث
الدراسة. ونحن نعده «كرا» كان مغلقا أمام المؤرخين؛ ربما لتشكيك ابن
خلدون في صدقه ونزاهته وربما لمحدودية رؤية هؤلاء المؤرخين الذين لم يحفلوا إلا
بالتاريخ السياسي والعسكري.

وحسبنا تقديرا لجغرافية البكري أنها أوفى المصادر قاطبة بالمعلومات المتعلقة
بتاريخ المغرب الوسيط؛ تلك التي كتبها الرواد الأوائل كالوراق والرقيق وعشت
بها أيادي الدهر فلم تصل إلينا. هذا فضلا عن تنوع هذه المادة وتعظيمها

(٨) راجع Corpus des dirhams Idrisite et contemporains, Rabat 1970

(٩) راجع Monnaies de la periode Idrisite trouvees a Volubilis, Hesperis. xx11, 1966

لبحوث سياسية والمذهبية والاقتصادية والاجتماعية فضلا عن الجغرافية الطبيعية
والشرية وحسب أن المكري صنف مؤلفه الجامع هذا بتكليف من الخليفة
الحكم المستنصر إبان مرحله عون فيها أمويو الأندلس على التدخل المباشر في
المغرب الأقصى

لذلك يكتسي مؤلف المكري أهمية أخرى تعود إلى معاصرته الكثير من
الأحداث الحسام التي تتعلق بدولة الإدارة.

ونسف العرض أيضا كلف ابن حوقل بكتابة جغرافيته من لدن الفاطميين.
وحسب أنه زار المغرب الأقصى وعابن حياة سكانه عن كتب وسجل ودون
مشاهداته الثرية في الجغرافيا الشرية والسياسية. ولكونه إسماعيلي مذهب؛ هتم
بالبحوث الاعتقادية وقدم خريطة واضحة عن المذاهب والطوائف بلاد المغرب
الأقصى آنذاك وقد حظي الإدارة باهتمامه لأنه كان يتحسس عليهم خدمة
والمشروع الفاطمي في المغرب الأقصى ولأن هذا المشروع تطور حول الأضلاع
الاقتصادية - بامتياز - فإن كتاب ابن حوقل يحوي مادة عزيزة عن لتاريخ
الاقتصادي والاجتماعي.

وترقى جغرافية اليعقوبي إلى مكان الصدارة - دون مدافع - فيه يتعلق
بجغرافيا السياسية. إذ انفرد بمعلومات ضافية عن مناطق الحدود ولتحوم والتغور
ولطرق والممرات الاستراتيجية التي أصابت الكثير من الغوامض عن أسباب
الصراعات بين الأداوسة وحيرانهم.

وبالطبع لم يغفل المصادر التقليدية المشرقية والمغربية والأندلسية؛ التي تهتم
بالتاريخ السياسي. كذا أفدنا من كتب الطبقات والملل والحل والأدب وما
شبهه. لكنا لن نسترسل في تبيان مدى أهميتها نظرا لتناولنا إيها في دراسات
سابقة مما يعني عن الملحاح والتكرار.

ومن الإنصاف أن أعترف بإفادة الباحث من عدد من الدراسات الحديثة في تاريخ المغرب والأندلس خاصة ما يمس منها موضوع البحث من قريب أو بعيد ويشرفني أن أبوه بأصحاب هذه الدراسات من تلاميذي النجباء الذين أشرفت على أطروحاتهم سواء في المغرب أو في مصر. لعل من أظهرهم الأساتذة سوسي يوسف ومحمد حناي ومحمد صدقي وعبدالكريم بيصعين وهبيجة سيمو. كذا أشير وأشير ببعض الأصدقاء من المؤرخين المغاربة الذين نحوا في دراساتهم عن تاريخ المغرب نحوا علميا صارما. من أشهرهم الدكتور عبدالله العروي والدكتور الحبيب الخنحاني والدكتور محمد الطالبي. لقد كانت لقاءاتي مع هؤلاء الأساتذة والطلبة عيانا أو من خلال كتاباتهم ذات فائدة عكست أصداءها على هذا العمل؛ برغم الاختلافات أحيانا في الماهج والرؤى.

ومن حق القارئ أن يعرف أن هذا العمل ليس تاريخا شاملا لإدارة بقدر ما هو محاولة لإبراز الحديد في هذا التاريخ. ولما كان الهدف وطبيعة الموضوع يحددان المنهج والرؤية؛ فلا أقل من التويه بمهجة هذه الدراسة ورؤية صاحبها.

ولسوف يقف القارئ على عديد من الماهج التي وظفت في معالجة الموضوع. وأقرر أنني لم أجِد غصاصة في اتباع المنهج الوصفي والرؤية «الميكروسكوبية» خاصة فيما يتعلق بحل «إشكالية» ملأ الفراغات اعتمادا على المادة الجديدة المتاحة التي وظفت في سد الفجوات المتعلقة بتاريخ الإدارة وما أكثرها. وفي هذا الصدد عمدنا إلى التفصيل والإطالة وأكثرنا من ذكر الأحداث والوقائع أما لمسائل المتفق عليها والتي حسمها دارسون سابقون؛ فلم سترسل في عرضها إلا بالقدر الذي يخدم استمرارية العرض أو يستلزم إضافة قرائن جديدة لم تكن متاحة سلفا.

كما اعتمدنا المنهج المقارن خاصة في معالجه موضوعات السياسة الخارجية التي تستوجب الإحاطة بتأريخ الدول ذات العلاقات مع الإدارة وذلك في محاولة لتصحيح الكثير من الأحكام التي صدرت عن مؤرخين تخصصوا في دراسة دولة معينة من تلك التي كانت على علاقات مع الإدارة؛ دون أن تناح لهم فرصة الإحاطة بالمعطيات العامة للعلاقات الدولية إبان الحقبة موضوع الدراسة

من أجل ذلك؛ كان على الباحث أن يقيد من عدد من المناهج الحديثة والمعاصرة فيما يتعلق بالتعامل مع «النص» أو إن شئت «قراءته» خاصة وأن طفرة منهجية في مجال العلوم الإنسانية حدثت منذ منتصف هذا القرن وأن حركة «نشر» بجدوى هذه المناهج تجري في عالمنا العربي على الصعيد النظري دون أن تأخذ طريقها بعد إلى مجال التطبيق أقصد على وجه الخصوص دعوة لمفكر الحداثي الأستاذ محمد أركون^(١٠) في ضرورة توظيف حشد من المناهج كالتريخانية والسوسيوثقافية والمادية والسيوية والسيملوجية والأنثروبولوجية وغيرها في دراسة العلوم الإنسانية والاجتماعية

وبحسب إد شاركة أركون يرى ضرورة التحفظ من حيث توظيف كل منهج أو أكثر في إطار المجال أو المجالات التي يمد فيها بمعنى أن مشروعية استخدام منهج ما رهينة بالحدوى التي يسفر عنها هذا التوظيف وعلى سبيل المثال يمكن لإعادة من «السيوية» في مجال تفكيك الظاهرة موضوع البحث لكشف عن مشمولاتها ومكوناتها لكن من الاعتساف أن نرجح بمسحها أو مسحها في مجال التفسير والتفسير

من هنا؛ أود الباحث من منهجية «ميشيل فوكو» سواء في طرح موضوعات البحث باعتبارها «إشكاليات» تتطلب حلولاً. كذا من رؤيته في «أركيولوجية

(١٠) راجع كنده هذه تاريخية الفكر العربي الإسلامي، بيروت ١٩٨٦

المعرفة» خاصة في استقصاء «التراكيات» المذهبية والإيديولوجية في المغرب الأقصى لمعرفة ما ستجد وما دوى وما استمر في نية هذه المذاهب منذ نشأتها في اشرق حتى استقرارها في المغرب، دون أن نذهب مذهب نبيوي أحر معاصر هو «جاستون دشلار» القائل بالقطيعة الإستعمولوجية

كما أفاد الباحث من منهج الورج الفرنسي الشهير «بروديل» بوجه خاص و«مدرسة الحوليات» المعاصرة بوجه عام. سواء في الاهتمام بمفردات التاريخ لإقتصادي كشرط أساسي للموقف على أنماط الإنتاج وعلاقاتها، وبالتالي تفسير معطياتها عن كفة الأصعدة التاريخية الاجتماعية والسياسية والثقافية، أو في مجال تحويل الوقائع والأحداث - بعد التحقق من صحتها - إلى أفكار واضحة ومحددة تشكل حصص البحث التاريخي كما يجب أن يكون. وتحتل هذا الحصاد في النهاية إلى ما يسمى «بالتاريخ الثقافي».

وأفاد الباحث أيضا من المنهج «الأنثروبولوجي» في دراسة البنى القبلية والاعتقادية والطقوسية؛ لا للموقف على أعماطها فحسب بل باعتبارها «طاهرات» تعبر عن مدى صيرورة أو سكونية - إن جاز التعبير - أو تباطؤ أو إسراع حركة انتطور التاريخي. ناهيك عن الوقوف على «تأثيرات» و«فعاليات» هذه الأنماط بشكل ملحوظ خاصة في مجتمعات لم تشهد ثورة بورحوازية. وقد أفاد هذا المنهج البحث موضوع الدراسة ليس فقط في الوقوف على الخرائط الإثنية والمذهبية في المغرب الأقصى في ظل الإدارة؛ بل في رصد تأثيرات طواهر العصبية والطائفية في تاريخ الإدارة السياسي أيضا.

وبالمثل أفاد الباحث من «السيمائية» في قراءة النصوص ودلالات الألفاظ الشائعة والاصطلاحات الثابتة في الخطاب الإسلامي «القرووسطوي» وأمكنه باستنار عور الكتابة الرسمية - كخطب ورسائل الإدارة - والإبداع الشعري -

خاصة ما ورد في الآثار عن الإدارة الشعراء - أن يقف على الكثير من الحقائق التي لم تصحح عنها الخوليات التاريخية.

وفي مجال قصة التعبير والتظير - الذي لم يخل البحث من الكثير مصددهما - يظل الباحث على فناعة بجدوى المصحح المادي الحدلي التريجي دون سوء ولم يقع في منلق «التوسير» التوفيق بين المادية التاريخية وبين النوية، بقدر ما وظف كلا من المنهجين في محاله

أخيراً، فصل المادة الجديدة المتاحة ومنهجية التناول التي أرعم أب جديدة أبصاء لا يجد الباحث حرجاً في الإعلان عن وقوفه على حقائق جديدة في موضوع معضل ومصداقية هذا القول رهبة بحكم جلة الدارسين المتخصصين، والله أسأل التوفيق،،

محمود إسماعيل

النوية في ١٩٨٨/٧/٥

البَابُ الْأَوَّلُ
فِي مَوْلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ

الفصل الأول الشيعة الزيدية في إشرق الإسلام

يرتبط قيام دولة الإدارة سنة ١٧٢هـ بالشييع الزيدي؛ فكرياً ودعوة وثورة. وهذا يعني أن الخيوط الأساسية لقيام تلك الدولة العلوية نسجت في إشرق. وهو أمر يتسق مع طبيعة قيام الدول المستقلة ببلاد المغرب نتيجة دعوات مذهبية ذات أصول شرقية خارجية وسنية وشيعية. وهذا يعني مقولة خاطئة دأبت مدارس الاستشراق الغربي على ترديدتها؛ فحواها تميز الصيرورة التاريخية في المغرب بالخصوصية والاستقلال عن المآثرات العامة في إشرق. كما يضع نهاية لمن تأثر بها من المؤرخين المغاربة المحدثين القائلين «بالقطيعة الإبيستمولوجية» بين إشرق والمغرب.

إن قيام دولة الإدارة مصداق صدق القاعدة الخلدونية التي تشترط إلى جانب العصبية دعوة مذهبية تسبق قيام الدولة وتمهد لتأسيسها. والبحث عن لدعوة المذهبية الإدريسية يقودنا إلى ضرورة تتبع أصولها الشرقية في المذهب لشييع الزيدي لمروج بالاعتزال. ومن ثم تقتضي سلامة المنهج رصد أصول هذه الصيغة الإيديولوجية خاصة ما يتعلق منها بالفكر السياسي

وسوء بأن اشكاليات عويصة تعترض سبيل الدارس لهذا الموضوع. لعل من أهمها الاختلاف بين الروايات التاريخية نتيجة الصراع الفكري والسياسي ولعسكري بين السنة والشيعة كذا الاختلاف بين مذاهب الشيعة بعضها

البعض. ناهيك عنه بين فرق الشيعة الزيدية نفسها؛ خاصة في مجال الفكر السياسي عموماً وحول قضية الإمامة على نحو حاصر. وتزاد المشكلة إبعاداً بالنسبة للمذهب الزيدي الذي احتلقت آراؤه بآراء الاعتزال.

ومن بين الطالع أن بصوراً جديدة ظهرت يمكن فصلها التماس حلول هذه الاشكاليات واستاداً إليها يمكن حوض الموضوع بما يحقق غبتين أولهما؛ رصد الخديد الذي يمكن أن يضاف إلى فكر وتاريخ الزيدية وثانيهما؛ تكريس الفكر والتاريخ الخاص بالزيدية في الكشف عن أصول دعوتهم التي أسفرت عن قيام دولة الإدارة

معلوم أن الزيدية فرقة من فرق الشيعة. وأن المذهب الشيعي نشأ من حلال حدل فكري عبر صراع «سوسبوسياسي» شجر في صدر الإسلام حول الخلافة ومعلوم أيضاً أن اعتصاب بني أمية الخلافة «مغالبية» أسهم في دعم الحزب الشيعي ونصده ساحة المعارضة. تلك الساحة التي ألى فيها الزيدية بلاءاً حسناً

يشتب الزيدية إلى الإمام زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب. وهو الذي تصدى لمهاضة الأمويين بعد استشهاد الحسين وقتل لشيعة الكيسانية ولجوء العلويين عموماً إما إلى المهادة الخدرة لترقة أو العمل السياسي السري

نشأ زيد بن علي في المدينة وتقلب ما بين الكوفة والبصرة^(١) لكسب حماهير لشيعة إلى حركته التي تصدت للأمويين عسكرياً وما نود إثباته أن الثورة

(١) اشهرستاني القل والنحل - ج ١ - ص ٢٠٨. القاهرة ١٩٦٥

العسكرية سقنتها دعوة سياسية استندت إلى أساس مذهبي ويستلزم الكشف عن أسرار هذه الدعوة رصد الفكر السياسي الزيدي

وأول ما يسترعى الانتباه في هذا الصدد أن الزيدية أفادوا من أخطاء التحارب العلوية السابقة وجنحوا نحو الاعتدال والوضوح خاصة بالنسبة لقضية الإمامة. فمعظم فرقهم لاتجعلها بالنص والتعيين بل عن طريق «عقد البيعة» ولم تختص بها فرعاً من فروع البيت العلوي بقدر ما أطلقتها «شورى» في ولد الحسن والحسين^(٢). يقول ابن خلدون^(٣): «ساق الزيدية الإمامة على مذهبهم باختيار أهل الحل والعقد لا بالنص». حجتهم في ذلك أن «الإمامة لا تستحق على وجه الإرث ولا جزاء على الأعمال»^(٤). بل تستند إلى «دعوة» لإمام «عالم زاهد غير خوار ولا جزوع»^(٥) بل مقدم بشهر سيفه في وجه الخصوم. «وإذا فقد نطلت إمامته»^(٦).

وهذا يعني عدم مجازاة الفرق الشيعية الأخرى القائلة بمبدأ «التقية» ومبدأ «المهدوية». بل لابد من ظهور الإمام الذي «يلتزم المسلمون أن يعرفوه ليمكنهم إجماعه ونصرتة»^(٧).

كما اشترط الزيدية ضرورة أن يكون الإمام عادلاً يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؛ «لأن القبح في أحوال العباد منهم وليس من الله»^(٨) والإمام «أعزل من

(٢) النوبختي: فرق الشيعة، ص ٢٢١، بيروت ١٩٨٤

(٣) مقدمة، ص ١٤٤، المكتبة النحارية.

(٤) الصاحب إسماعيل بن عباد نصره مذهب الزيدية، ص ١٨٣، بغداد ١٩٧٧

(٥) ص ١٦١

(٦) ص ١٤٣.

(٧) ص ٣٠١

(٨) انظر ابن عرفة الورعني: باب الإمامة، من كتاب المحنصر الشامل تحقيق سعد عراب، حوثيات جامعة التونسية، عدد ٩ سنة ١٩٧٢، ص ١٩٦

شرط العصمة»، لذلك «أحازوا إمامة المفصول مع وجود الأفضل»^(٩) كما حوروا قيام إمامين في وقت واحد «إذا ما كانا في طرفين متباعدين»^(١٠)

هكذا اتسم الفكر السياسي الزيدي بالاعتدال من أجل كسب المرید من الأتباع ولأنصار وتوجيههم وللكفاح المسلح تحقيقاً للأعراس السياسية^(١١). كما اتعد عن العلو الذي طمع فكر الروافض^(١٢)؛ بحيث حارى بعض اذهب الأخرى غير الشيعية كأهل السنة ومعتدلة الخوارج والمعتزلة وحق لجولدتسيهر^(١٣) القول. «لم يكن الإمام عند الزيدية معصوماً يحتكر التأويل الباطني بقدر ما اتسم بصورة واقعية يعمل في الحياة في نضال مكشوف كحكم وفقه للجماعة الإسلامية». لذلك كان الزيدية الأوائل أقرب ما يكونون إلى أهل السنة باعتمادهم مبدأ الشورى ومبدأ جواز تقديم المفصول^(١٤). ومن ثم فهم يمثلون الفرقة الشيعية الوحيدة المعتدلة إزاء أهل السنة^(١٥).

كما اقتربوا من فكر الخوارج في القول بالثورة العلوية المشروعة على أئمة حور

وكن اقترابهم من المعتزلة أعمق وأوثق حتى اعتر بعض علماء الفرق^(١٦) لمعتزة فرقة زيدية. ومعلوم إن واصل بن عطاء أفاد من علم الأئمة العلويين

(٩) شهرستاني. ١ ١٦١

(١٠) ابن عباد: ١٩٧

(١١) نفسه: ١٣

(١٢) فهورن الخوارج والشيعية، ص ٢٥٨، القاهرة ١٩٦٨

(٣) تعقيد الشريعة في الإسلام، ص ٢٣٧، القاهرة ١٩٥٩

(٤) محمد حسن الرزوي الشعة في التاريخ، ص ٧٤، بيروت ١٩٧٩

(١٥) جولدسيهر ٢٣٧

(١٦) سبطي التيه والرد على أهل الأهواء والندع، ص ٣٩، القاهرة ١٩٤٩

ودرس على بعضهم^(١٧)، كما تتلمذ على يديه زيد بن علي مؤسس المذهب الزيدي^(١٨) ولا غرو فقد تأثر الزيدية بالمعتزلة في نظرية الإمامة^(١٩)، فضلاً عن لأخذ مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وعموماً يعتبر علم الكلام الزيدي محاكاة لآراء المعتزلة؛ وإن كان بعض الدارسين^(٢٠) يرون أن واصل ورثها عن الأئمة العلويين الذين توارثوها عن علي بن أبي طالب. ولعل هذا لتداخل كان من أسباب اعتنار بعض رجالات الزيدية أنفسهم من المعتزلة. وبالمثل كان معتزلة بغداد يقولون «نحن زيدية»^(٢١).

لم يكن التأثير والتأثير المتبادل بين مذهب الزيدية والاعتزال قاصراً على الجانب الفكري؛ بل انسحب على العمل الدعائي السياسي المشترك كما سنوضح في موضعه.

وهنا تثار إشكالية أخرى؛ هل كانت الدعوة الزيدية إبان زعامة زيد بن علي مستقلة، أم أنها اندرجت في سلك الدعوة العباسية؛ وما هو موقف المعتزلة من الدعوة الزيدية والعباسية، مع العلم بثبوت وجود دعوة معتزلية مستقلة؟.

ستأتي الإجابة صمناً على هذه الأسئلة من خلال استعراض الدعوة الزيدية وما آل إليه مصيرها بعد أن تحولت إلى ثورة سياسية اجتماعية.

سبق احزم بأن «الدعوة شرط من شروط الإمامة عند الزيدية»^(٢٢). فكسب الأتباع وتجنيد الأنصار وتعبئة الجيوش ومباشرة الحرب كان مسبوقاً بإعداد

(١٧) لموتهي، المية والأمل، ص ٥، حيدر آباد ١٣١٦هـ.

لقاضي عبدعزير فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، ص ٢١٥، تونس ١٩٧٤.

(١٨) الشهرستاني: ١١٦

(١٩) جولد نسيهر: ٢٢٢

(٢٠) نفسه: ٢٢٠

(٢١) «صاحب إسماعيل بن عبد: ٢٢٠.

(٢٢) نفسه ٢٢٣

وتنظيم ودعاية ومعلوم أن زيد بن علي انتصب للحرب ضد الأمويين سنة ١٢٤هـ وهذا يعني أن تنظيم الدعوة كان سابقاً لهذا التاريخ. ونحن نعلم أن العلويين غير الزيدية - من الكيسانية والحسينية - إندرحوا في الدعوة العلوية التي آلت رعايتها لبي العباس سنة ١٠٠هـ. ونقرر من ثم أن الزيدية لم يحرطوا في هذه الدعوة على أساس عدم اعترافهم بالكيسانية أصلاً. كما ثبت لوقائع وقوع خلاف بين الزيدية والحسينية أيضاً. لذلك نؤكد عدم انضمام الزيدية إلى الدعوة العلوية العباسية في ذلك الحين؛ خصوصاً بعد تعلق جموع الشيعة في الكوفة والبصرة بشخص زيد بن علي وتحريضهم إياه على الثورة ضد بني أمية من ناحية وبعد أن تاذل أبو هاشم بن محمد بن الحنفية لمحمد بن علي بن عبدالله بن العباس بزعامة الدعوة^(٢٣) من ناحية أخرى.

لذلك طفق زيد بن علي يدعو لنفسه في البصرة والكوفة والموصل^(٢٤) مستقلاً عن الدعوة العباسية متخذاً الحذر والحيلة من تأمرهم بصورة لا تقل عن حذرهم من الأمويين. يفسر ذلك تغييره مكان إقامته دوماً حتى لا ترصده عيون الخصمين معاً. كذا اختياره دعائه من خاصة آل بيته الذين كانوا يتخفون في ملابس العبداء والتجار ويؤلبون الناس ضد بني أمية على أساس «أن الثورة عليهم غضب الله ودينه»^(٢٥). كما عولوا في دعوتهم على إبراز الجانب الاجتماعي حيث دعوا الأتباع والأنصار إلى كتاب الله وسنة نبيه وجهاد الظالمين والدفاع عن المستضعفين وإعطاء المحرومين وقسم الفقيه بين أهله بالسواء ورد المظالم ونصرة أهل النبي^(٢٦).

(٢٣) الأصمعي: معاتل الطالبين، ص ١٢٦، النجف ١٣٥٣هـ.

(٢٤) دهور: ٢٥٧.

(٢٥) السلاوي: أنساب الأشراف: ج ٣، ص ٢٠٢، القاهرة ١٩٥٩.

(٢٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٧، ص ٧٣، القاهرة ١٩٦٢.

لذلك أقبلت جماهير الموالي الساخطين على بني أمية على الدعوة. كما اندرج في سلكها عرب الحجاز الذين حرمهم هشام بن عبد الملك من الأعطيات^(٢٧) كما حظيت بتأييد الفقهاء كالإمامين مالك وأبي جيفة وبعض رحل العلويين الحسينية - كمحمد النفس الزكية - فصلا عن شيوخ المعتزلة كواصل بن عطاء^(٢٨). وأخذت البيعة لزيد من أهل الحجاز والبصرة ولكوفة ولموصل وحراسان والري وجرجان^(٢٩). لكنه أخطأ حين عجل بإعلان الثورة قبل نصح الدعوة فكان ذلك من أسباب فشلها كما سوضح في موضعه.

بعد فشل ثورة زيد بن علي سنة ١٢٤هـ وثورة أبيه يحيى سنة ١٢٥هـ اندرجت الدعوة الزيدية في سلك الدعوة العباسية. ويعرى فصل ذلك إلى محمد النفس الزكية الذي تزعم المزعج الحسي. وقد تحقق ذلك في مؤتمر سري عقد عام ١٢٧هـ تقرر فيه أن تؤول الخلافة إلى محمد النفس الزكية بعد نجاح الثورة العباسية^(٣٠). وهذا يفسر اعتراف العباسيين الذين تزعموا الدعوة عمليا بحق العلويين أصحاب الفضل الأول في تأسيس الدعوة حين طرحوا شعار «الدعوة للرعي من آل محمد». لكن العباسيين استأثروا بالخلافة بعد نجاح الثورة على الأمويين سنة ١٣٢هـ.

وعلى إثر ذلك انفصلت الدعوة الزيدية عن العباسية وتزعمها محمد النفس الزكية بتعزيد من المعتزلة.

وها نشوقف لبيان موقف المعتزلة. ونؤكد في هذا الصدد أنهم لم يدعوا دعوتهم في الدعوة الزيدية إبان زعامة زيد بن علي صحيح أنهم تعاطفوا معه،

(٢٧) الأصمعي ١٤٥

(٢٨) ابن عبد ربه: المعتمد المريد، ج ٣، ص ٤١٦، القاهرة ١٩٤٠

(٢٩) الأصمعي: ١٣٧

(٣٠) مع ٢٠٥

لكنهم آثروا الاستقلال بأمر دعوتهم. فريتنا على ذلك أن واصل بن عطاء الذي ألف كتاب عن أصول «الدعوة» الإعتزالية اتخذ من الكوفة - وليس البصرة مقر دعوة زيد بن علي - مقرا لدعوته. ومنها أنه أنفذ دعائه إلى بلاد المغرب وحراسان واليمن والحزيرة وأرمينية^(٣١). وقد أورد الجاحظ^(٣٢) أسماء بعض هؤلاء الدعاة كعبدالله بن الحارث وحفص بن سالم والحسن بن ركوان وعثمان الطويل وغيرهم. وإذا علمنا أن دعوة واصل في خراسان - مثل حفص بن سالم - كان يعمل مستقلا عن دعوة زيد في نفس الإقليم - مثل عبيد بن كثير الجرمي والحسن بن سعد الفقيه^(٣٣) - أدركنا حقيقة الانفصال بين الدعوتين الزيدية والاعتزالية رغم تعاطف واصل مع زيد بن علي وحركته.

ويعتقد كذلك أن واصل لم يدمج دعوته بالدعوة الزيدية التي ترأسها محمد النفس الزكية إلا بعد انفصال الأخير عن الدعوة العباسية التي وقف منها المعتزلة موقف المعارضة.

على كل حال - أدى انضمام المعتزلة إلى الزيدية برعاية محمد النفس الزكية إلى دمج دعوتيهما في دعوة واحدة وهو أمر يتسق مع فكر المعتزلة السياسي الذي يجبذ لعمل تحت راية إمام عادل أولا، ثم التأكد من موثاقاة ظروف النصح ثانيا. ويبدو أن تقاعسه عن مناصرة زيد بن علي - رغم عدله - كان نتيجة عدم اختياره لوقت المناسب لإعلان ثورته. فضلا عن اكتشاف الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك أمر الدعوة الزيدية^(٣٤).

(٣١) الدمشقي: تاريخ الختمية والمعتزلة ص ٨١

(٣٢) البيان والتبيين، ج ١، ص ٢٥٠، القاهرة ١٩٤٨.

(٣٣) لأصمعي: ١٤٧.

(٣٤) نفسه، ١٣٥.

ويبدو أيضا أن المعتزلة دمجوا دعوتهم في الدعوة الزيدية بزعامة محمد بن الحسين
الركبة^(٣٥) بعد وفوفهم على اشتداد ساعد دعوته والتفاف الكثيرين من الأتباع
والأنصار حولها بعد أن عذر به أبو عمومة من العباسيين. وليس أدل على ذلك
من قيم محاولات - قبل اندلاع الثورة العباسية وبعدها - لتحويل الأمر إلى
العلويين كما أن تنكر العباسيين للكثير من شعارات الدعوة - كالإحياء
والإصلاح - بعد احتكارهم الخلافة صرف أنظار الكثيرين من شيعتهم إلى البيت
العلوي.

وهذا يعني أن دعوة محمد بن الحسين الزكية نجحت في استقطاب الكثيرين ممن
ندرجوا سلفا في سلك الدعوة العباسية فضلا عن الشيعة الزيدية الذين كانوا في
دعوة زيد بن علي ليس أدل على ذلك مما ذكره الطبري^(٣٦) من أن زيدية
خراسان كانوا يكتبون محمد بن الحسين الزكية ويرسلون إليه صدقاتهم وأموالهم.
وهذا يفسر لماذا اتسع نطاق الدعوة لتشمل مصر والحجاز والشام وخراسان
ولعراق واليمن وبلاد الهند وبلاد المغرب^(٣٧). وهذا يعني أنها لاقت رواجاً في
أقاليم لم ترحب بدعوة زيد من قبل؛ كبلاد الشام ومصر التي عاقب الخليفة
المنصور أهلها لإقبالهم على إبراهيم أخ الحسين الزكية بأن حرّمهم من أداء فريضة
الحج^(٣٨).

(٣٥) ذكر الأصمعي أن «واصل وعمرو بن عبد الله اجتماعاً في دار عثمان بن عبد الرحمن المحرومي من
أهل البصرة وتذاكروا. فقال عمرو من يقوم بهذا الأمر من يستوحه حصوله؟ فقال واصل
يقوم به والله من أصبح خير هذه الأمة محمد بن عبد الله بن الحسين»
انظر: مقاتل الطالبين، ص ٣٩٣.

(٣٦) تاريخ الرسل والملوك، ج ٩، ص ١٨١، عبدالمعظم ماجد، العصر العباسي الأول، ص ٨٢،
مقدمة ١٩٧٣.

(٣٧) لسمردي: مروج الذهب، ج ٣، ص ٣٠٧، ٣٠٨، القاهرة ١٩٦٤.

(٣٨) لطيبي، ٩، ١٩٢.

أفادت دعوة محمد النفس الزكية من أساليب وخطط الدعوة العباسية في التحفي والاستتار حتى كان الدعاة يتكفرون في ملابس العرمان. كما استخدم النساء في مهام الاتصال^(٣٩) فضلا عن نظام محكم للبريد لنقل الأحبار بين رئيس الدعوة ودعاته في سائر الأمصار^(٤٠).

كما أفادت من أخطاء زيد بن علي؛ فطورت المذهب الريدي بموافق أغراضها العملية. وفي هذا الصدد أجزت «التقية» والتبشير «بالمهدوية»^(٤١) بل لم يتورع محمد النفس الزكية عن استرضاء الأتباع والأبصار عن طريق بذل لأموال.

لكل ذلك تعظم أمر الدعوة؛ فلم يجد المعتزلة ما يحول دون انضمامهم إليها دعائيا وسياسيا وعسكريا. كما واصلوا تعصيدها بعد أن آلت رياستها إلى الحسين بن علي بن الحسن بن علي. وما فتوا على موقفهم هذا حتى قيام دولة الإدارة؛ وهو ما سنتفصله في موضعه.

أما وقد انتهينا من إثبات وجود دعوة زيدية وضع أصولها زيد بن علي وبلغت أوجها على يد محمد النفس الزكية؛ فمن المفيد أن نعرض بإيجاز لثورات الزيدية في الشرق التي أسفرت عن قيام دولة الإدارة. ولن نحفل إلا بتبيان طابعها الإحتشاعي وتحليل عوامل فشلها وما أدى إليه هذا الفشل من تحول «مشروعها» السياسي إلى الأطراف حيث نجحت - شأنها شأن الخوارج - في تأسيس كيانات سياسية مستقلة.

(٣٩) ص ٧ : ٦٤١.

(٤٠) الأصمعي: ٣٧٧.

(٤١) محمد النفس الزكية في إحدى خطبه «إنكم لا تشكون أي أحد المهدي وثنا هو» انظر لأصمعي: ٢٠٥.

انطلقت الثورة الزيدية الأولى عام ١٢٤هـ بزعامة زيد بن علي^(٤٢) وبرغم كثرة أنصارها من العرب والموالي^(٤٣)، وبرغم تأييد الفقهاء لها آل مصيرها إلى الفشل. وقد فسره المؤرخون^(٤٤) بحرلان أهل العراق زيد كما حدثوا جده الحسين من قبل. لكن أحدا لم يشر إلى سر موقف أهل العراق هذا إن تحليلا دقيقا يجب أن يضع في الاعتبار تأثير الفكر السياسي الزيدي إيجابا وسلبا على مجريات الحركة. لقد تلت أهدافا اجتماعية واضحة وكرد الفتيء إلى من حرموا منه وتوزيع الخراج بالعدل. لذلك أقدم المستضعفون من العرب والموالي على تعاضدها. لكن في نفس الوقت لم يتقاعس أثرياءهم عن مناهضتها.

كما أن قول الزيدية - دون فرق الشيعة الأخرى - بجوار إمامة المفضل كان يعني إقرارا ضمنيًا بخلافتي أبي بكر وعمر. لذلك أزرهم الفقهاء من أهل السنة. وفي نفس الوقت أحدث هذا الاعتراف صدعا في صفوف الشيعة فكف الكثيرون منهم عن مناصرة ثورتهم بل قعدوا عن المشاركة فيها^(٤٥).

وعلى أن نضع في الاعتبار كذلك دور العباسيين في هذا الفشل على الرغم من زعم بعض الدارسين بأنهم تعاطفوا مع زيد بن علي نكابة في بني أمية. وما نراه أن العباسيين لم يدخروا وسعا في وضع العراقيل أمام زيد^(٤٦).

(٤٢) نفسه. ٣٢٤.

(٤٣) الطبري: ٨ : ٢١٧، فلهوزن: ١٧٩.

(٤٤) الأصمهان: ١٤١.

(٤٥) فلهوزن: ٢٥٨.

(٤٦) ذكر مؤرخ مجهول أن بكير بن ماهان - من دعاة العباسيين - خاطب أهل الكوفة بقوله «إلرمو بيوتكم وتجنسوا أصحاب زيد ومخالفاتهم موافقة ليقتلن وليطلبن بجميع أصحابكم» وبالفعل عندما قامت الثورة في الكوفة خرج بأصحابه إلى الحرة حتى هزم زيد وقتل؛ فعاد إلى الكوفة انظر: سنة من كتاب التاريخ، ص ٤٤.

حتى يفتك به جيش هشام بن عبد الملك. لأن نجاحه كان يعني سحب السطاح من تحت أقدامهم والحؤول دون تطلعهم إلى الخلافة.

لذلك تنفس العباسيون الصعداء بعد فشل الثورة. ولنفس السبب انتهكوا لفشل ثورة ابنه يحيى سنة ١٢٥هـ (٤٧). وحسبنا أن هذا الفشل حرى لصالحهم إذ كسبت دعوتهم الكثيرين من أنصار الدعوة الزيدية خصوصا في خراسان (٤٨).

على كل حال - نجح العباسيون في إسقاط الخلافة الأموية سنة ١٣٢هـ وأدى استئثارهم بالخلافة - دون العلويين - إلى تفجير الخلاف بين الطرفين. وما يعني أن الحرب الكلامية حول الأحقية بالخلافة أفضت إلى انشقاق محمد النفس الزكية عن العباسيين. وقد تبعه الكثيرون من شيعة بني العباس حتى في خراسان نفسها (٤٩)؛ الأمر الذي شجعه على إعلان الثورة. لذلك أصبح الصراع العسكري بين الخصمين أمرا لا مندوحة عنه.

طور العباسيون الحرب الكلامية (٥٠) إلى عداء سياسي فحاولوا إحكام الخناق على محمد النفس الزكية؛ بإسناد ولاية الحجاز لولاية جفاعة أباحوا المدينة

(٤٧) صاحب إسماعيل بن عباد: ٢٢١.

(٤٨) البغدادي: الفرق بين الفرق، ص ٤٤٨، القاهرة؟

(٤٩) ذكر البغوي: لما مات زيد تحول الشيعة بخراسان وكثر من يأتيهم ويقيم معهم وجعلوا يذكرون أناس بأفعال بني أمية ومن مالوا من آل الرسول. وظهرت الدعوة ودورست الملاحم. انظر: تاريخه، ج ٢، ص ٣٩٣، الجف ١٣٥٨هـ.

وذكر السعدي أن أهل خراسان لم يولد لهم ولد في عام ١٢٥هـ إلا وسموه ريذا أو يحيى.

انظر: مروج الذهب، ج ٣، ص ٢٢٥، القاهرة ١٩٦٥.

(٥٠) لسبب في حاجة إلى سرد التفاصيل في هذا الصدد، ذلك لأن الموضوع قتل بحث ويكتفي بإيراد بعض النصوص الغامضة التي تختم موضوع الدراسة.

ذكر الطبري عن استئثار العباسيين بالخلافة أن السعاح حط في شعبة يعون إن الأمر فيه، ليس منا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم.

انظر: تاريخ الرسل والملوك: ٧: ٤٢٨.

وقد برر المصور هذا الاستئثار بقوله: فإن أولاد ابن أبي طالب تركناهم والخلافة لم نعرض لهم

للحند؛ فسلوا ونهوا وهتكوا الأعراض^(٥١). كما أن الخليفة المنصور لم ينورع عن قتل شيوخ العلويين أمام باظرية^(٥٢)؛ إمعانا في إرهاب الثوار هذا في الوقت الذي أغرى فيه من أغرى ببذل الأموال والمناصب^(٥٣). كما لجأ إلى لدهاء والخبينة فأمر بترييف رسائل من أتباع النفس الزكية نستحثه الخروج للقتال قبل أن تكتمل استعداداته.

وبالفعل وقع محمد النفس الزكية في الشرك فأعلن الثورة في المدينة دون أن يعلم أخوه إبراهيم بالعراق سنة ١٤٥هـ^(٥٤). عندئذ ناعته المنصور بحشيش الواحد في إثر الآخر بعد أن أمدهما بالمؤن والعتاد والسلاح^(٥٥). وتمكن القائدان حميد بن قحطبة وعيسى بن موسى من إحكام الحصار حول المدينة لدخول دون وصول نجدات من العراق. ثم باغتا المحاصرين فأجهزوا على الثوار. وقتل محمد النفس الزكية بعد استئساد في القتال.

وكان إبراهيم أخ النفس الزكية قد تمكن من الاستيلاء على البصرة والأهواز؛ لكن جيش العباسيين ما لبث أن أجهز عليه ومن معه عند مكان يقال له باخمرا قرب الكوفة.

بقيل ولا كثير قام بها علي بن أبي طالب ما أطلع ثم قام بعده الحسن فواته ما كان يرجو ثم قام الحسين فخذله أهل العراق.. ثم قام زيد فخذله أهل الكوفة ثم وثب عليها برامية فأدهوا شرفا وأدهوا هربا فأحيا الله شرفا وأصار إليها مراثاء
انظر: المسعودي: ٣: ٣١١

وعن مساجلات الكلامية بين الطرفين؛ راجع ابن الأثير الكامل، ج ٥، ص ٥٣٧ وما بعدها

(٥١) بن قتيبة الإمامة والسياسة، ج ١، ص ١٥٢، القاهرة؟

(٥٢) بن الأثير: ٥: ٥٢٦

(٥٣) نفس المصدر والصفحة

(٥٤) لأصمعي: ٢٦٠

(٥٥) نفسه، ٣١٩

(٥٦) لمسعودي: ٣: ٣٠٧.

إن فشل ثورة محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم يرجع إلى الوقوع في أخطاء استراتيجية؛ ذلك أن اندلاع الثورة في الحجاز والعراق عجل بالقضاء عليها. والحجاز بموارده ورجاله أعجز من أن يقوم بثورة ضد دولة في مرحلة فتوتها. كما أن اندلاعها في العراق - قلب الدولة العباسية - عجل بنهايتها. فإذا أصيب إلى ذلك تفجر الشقاق بين العلويين؛ حسنين وحسيين؛ أدركنا سر نجاح العباسيين في القضاء على الثورة الزيدية^(٥٧).

آلت زعامة الزيدية إلى عيسى بن زيد وعلي بن العباس بن الحسن بن الحسن بن علي. أما عيسى فقد لاذ بالكوفة معلناً العزوف عن السياسة إلى الاشتغال بالعلم^(٥٨). واكتفى الخليفة المهدي منه بالمسألة^(٥٩). فلما أزمع العصيان لم يجد بداً من القبض عليه وسجنه إلى أن وافاه أجله^(٦٠).

أما علي بن العباس فقد أخطأ حين اتخذ من بغداد مقلاً لنشاطه السياسي السري. فلما اكتشف أمره دس المهدي إليه من دس له السم^(٦١).

آلت زعامة الزيدية بعد ذلك إلى الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي الذي أخطأ أيضاً حين ثار بالحجاز سنة ١٦٩هـ إبان خلافة موسى الهادي. فبرغم كثرة أتباعه نظراً لإلحاحه في دعوته على «نصرة المستضعفين وتحرير الأرقاء»^(٦٢)؛ لم يجد الخليفة عماء في القضاء على حركته في معركة فح - قرب

(٥٧) الأصمعي: ٢٧١.

(٥٨) نفسه: ٤٠٧.

(٥٩) قيل أن يعقوب بن داود وزير المهدي هو الذي أعرى الخليفة بمساعدته لأنه كان يصبر الملوك الزيدي.

انظر: عبد المصم ماجد: المرجع السابق، ص ١٨٤.

(٦٠) لأصمعي: ٤٠٧.

(٦١) نفسه: ٤٠٣.

(٦٢) انصري: ٨ - ٩٤.

مكة - حيث دارت مذبحة شبيهها المؤرخون بكريلاء لم ينج منها من العلويين إلا يحيى بن عبدالله بن الحسن وأخوه إدريس.

وعني عن القول أن المعتزلة اشتركوا في الثورات الزيدية ابتداء بثورة محمد النفس الزكية وانتهاء بمعركة فخ حسب اعتراف زعيمهم عمرو بن عبيد^(٦٣) لذلك تعرضوا لبطش بني العباس حتى عهد المأمون. فقد أمر الرشيد بطردهم من بغداد بعد أن ومنع الجدل في الدين وحبس أهل الكلام^(٦٤). لكن ذلك لم يحل دون مناصرته الزيدية الذين عملوا إلى التقيّة في قلب الدولة^(٦٥) من أجل مواصلة الدعوة في الأطراف. وقد توجت دعوتهم بتأسيس دولتين إحداهما ببلاد الديلم والأخرى ببلاد المغرب الأقصى^(٦٦).

أم الأولى فقد أسسها يحيى بن عبدالله ولم تعمر طويلاً؛ إذ قضى الرشيد عليها بالخديعة والسياسة. والدولة الثانية هي دولة الإدارة التي أسسها إدريس بن عبدالله بالمغرب الأقصى سنة ١٧٢هـ؛ وهي موضوع الدراسة.

وقد مهدت ظروف بلاد المغرب الجغرافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والمذهبية لتأسيس واستمرار الدولة الإدريسية. كيف كان ذلك؟ هذا ما سنعرض له في الفصل التالي.

(٦٣) محمود سماعيل الحركات السرية في الإسلام، ص ٨٠، مارس ١٩٧٧

(٦٤) الموثق: المرجع السابق، ص ٣١.

(٦٥) مع ذلك قامت حركتان ريديتان في الشرق ترعّم الأولى شخص يدعى أبو السراب في عهد المأمون، ولم يكن من العلويين وإن أعلن الثورة باسمهم والثانية برعامة محمد بن القاسم بن عمرو بن علي بن الحسن بن علي، الذي أعلنها في الطالقان سنة ٢١٨هـ تحت شعار «الرصي من محمد» وفي فشل الحركتين معا وقيام الأولى باسم العلويين والثانية تحت شعار فصاعص؛ ما يؤكد حموت صوت الريدية في الشرق.

(٦٦) حسن أحمد محمود العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص ١٢١، القاهرة ١٩٦٦

الفصل الثاني المغرب الأقصى قبيل قيام دولة الأدارسة

إن استقصاء أحوال المغرب الأقصى قبل قيام دولة الأدارسة سنة ١٧٢ هـ سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ودينيا ضرورة منهجية تكشف عن العوامل الممهدة لنجاح الدعوة الزيدية. كما وأن استقصاء هذه الأحوال لا يتم بمعزل عن التعرف على الإطار الجغرافي الذي شهد ووجه مسار الأحداث.

وتبرز أهمية الجغرافيا الطبيعية والبشرية في توجيه التاريخ؛ خاصة في العصور الوسطى حيث لم يستطع الإنسان بعد التحكم في طبيعة المكان. هذا ما تقرره النظرية المادية في المعرفة بالسنة لمجتمعات ما قبل الرأسمالية. وهذا هو ما فطر إليه ابن خلدون حين أفرد في مقدمته الرائعة فصولا هامة عن تأثير المكان في مزاجية الإنسان. ذلك أن المعطيات الجغرافية هي التي تفرز التوجهات الاقتصادية للسكان. كما وأن التوجهات الاقتصادية هي التي تحدد وتصوغ البنيات الاجتماعية التي من خلال صراعاتها يتخلق التاريخ.

ولسوف نلاحظ أن جغرافية بلاد المغرب عموما والمغرب الأقصى خصوصا مهدت للدعوة الزيدية التي أسفرت عن قيام دولة الأدارسة. بل لعبت دورا محوريا في صياغة سياستها الداخلية وعلاقاتها الخارجية.

والواقع أن اصطلاح «المغرب الأقصى» يشكل إشكالية تدرج ضمن إشكالية أعم وأعم تتعلق بمصطلح «المغرب» الكبير. إذ اختلف الدارسون في

تحديد خريطته وتسمية أقاليمه. ويرجع ذلك إلى اختلافات سابقة بين المؤرخين والجغرافيين القدماء. إذ نظر هؤلاء إلى خريطة «بلاد المغرب» حسب المعطيات السياسية والإدارية إبان عصورهم. فالتوسع رقعتها أو تقلصها ارتبها باختلاف عصور التاريخ الإسلامي عموماً ووضعيتها ببلاد المغرب داخل خريطة «دار الإسلام» وطبيعة علاقاتها مع عواصم الخلافة في المشرق.

كما أن التسميات الكلاسيكية إبان الوجود الروماني والبيزنطي، كذا التسميات السياسية الحديثة والمعاصرة أسهمت بدور في تخليق هذه الإشكالية؛ نتيجة تأثير الاسقاطات القديمة والحديثة على «مغرب» العصور الوسطى.

ناهيك عن اختلاف رؤية المشاركة للمغرب ورؤية المغاربة للمشرق وما لعه التنافر بين الرؤيتين في تعقيد الإشكالية. وهو أمر عطن إليه ابن خلدون حين قال: «إعلم أن لفظ المغرب في أصل وضعه اسم إضافي يدل على مكان من الأمكنة لإضافته إلى جهة المشرق. ولفظ المشرق كذلك بإضافته إلى جهة المغرب. وكل مكان في الأرض مغرب بالإضافة إلى جهة الشرق ومشرق بالإضافة إلى جهة الغرب»^(١).

لم تثر هذه الإشكالية بالنسبة للمغاربة في العصور الإسلامية الباكرة؛ لأنهم لم يعتمدوا أي تصنيف أو تقسيم جغرافي لبلادهم إذ كانوا يسمون الأقاليم بأسماء القبائل الصاربة فيها^(٢). وفي ذلك قرينة على أن الإشكالية لم تثر في لادبيات التراثية إلا في حقب متأخرة^(٣).

(١) المبر ٦ : ١٩٣

(٢) ياقوت. معجم البلدان، ج ١، ص ٣٦٩، بيروت ١٩٥٦

(٣) عبدالمكرم بصعب. المرحع السابق، ص ٢٧

وإذا عولنا على قاعدة رؤية خريطة المغرب في إطار خريطة «دار الإسلام»، لا نستطيع أن بلج باب حل الإشكالية. ذلك أن تحديد المشرق والمغرب حسب العرف السائد في العصور الوسطى الإسلامية جرى على أساس الموقع من عاصمة الخلافة؛ فما كان شرقيها يعد مشرقاً وما كان غربيها يعد مغرباً.

التعويل على هذا المعيار يقود إلى تضليل؛ نظراً لانتقال العاصمة حسب عصور التاريخ الإسلامي ما بين المدينة ودمشق وبغداد. ومن ثم تسقط الرؤية السياسية والإدارية في تحديد مصطلح المغرب؛ تلك التي عول عليها بعض الدارسين المحدثين.

كما أن التعويل على الجغرافيا الطبيعية وحدها يقود إلى ذات المنزلق. إذ لو اعتمدنا وحدة الإقليم كمعيار؛ فإن عصر يمكن أن تضاف إلى بلاد المغرب؛ وهو خطأ وقع فيه بعض الجغرافيين القدماء.

لذلك لا مناص من الاستناد إلى الوحدة الطبيعية والبشرية كمعيار؛ وهو أمر فطن إليه ابن خلدون أيضاً^(٤) حين ذهب إلى أن بلاد المغرب هي «ديار البربر ومواطنهم»، ونحن نفر بوجاهة رأيه تأسيساً على اختصاص البربر بسمات مميزة في أنماط الحياة وطرائق المعاش والموت والأعراف واللغات. كما نأخذ بوجهة نظره في تقسيم خريطة المغرب الطبيعية والبشرية إلى ثلاثة أقاليم هي المغرب الأدنى وإفريقية ثم المغرب الأوسط ثم المغرب الأقصى^(٥). خاصة وأن هذا التقسيم يلائم التقسيمات الإدارية القروية-وسطية؛ كذا التقسيمات الإدارية والسياسية الكلاسيكية والحديثة.

(٤) العبر. ٦ ١٧٥

(٥) مع. ١٩٣ - ٢٠٥

وبالمثل يمكن - في ضوء ذلك - حلحلة إشكالية مصطلح « المغرب الأقصى »؛
 ونوه أن هذه التسمية لم يجر الأخذ بها قبل القرن الخامس الهجري^(٦). واستنادا
 إلى إجماع ثلثة من المؤرخين والجغرافيين الثقة - مثل ابن عداري^(٧) وابن أبي
 زرع^(٨) وصاحب كتاب الاستبصار^(٩) - نستطيع أن نعرف المصطلح بأنه يشمل
 الأراضي الواقعة بين تلمسان شرقا، والمحيط الأطلسي غربا، سته وطنجة شمالا،
 وصحراء سجلماسة جنوبا.

ويتميز هذا الإقليم بتنوع تضاريسه ما بين جبال وسهول وصحاري.
 فجبال غماره ببلاد الريف التي تمتد حتى فاس^(١٠) تشكل حماية طبيعية لأي كيان
 سياسي من ناحية، كما تشجع على حركات الانتزاع ضد الحكومات المركزية من
 ناحية أخرى^(١١) أما سلاسل جبال فازاز - على مسيرة ثلاثة أيام من فاس - فقد
 اشتهرت بأشجارها السامقة وطبيعتها الوعرة التي جعلتها منطقة طرد بشري
 خصوصا في فصل الشتاء حيث تكتسي قممها بالثلوج^(١٢) وعلى العكس تمتد
 جبل درر من الجنوب العربي مخترقة شمالي القارة حتى تصل إلى طرابلس
 شرقا^(١٣) وهي متحمة طيب للرعي وموئل زاحر لمعدن النحاس الذي سوف
 تصطرع بسسه القوى الداخلية والخارجية.

(٦) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص ٤ - ٢٠، الجزائر ١٩٥٧

(٧) البيان المغرب، ج ١، ص ٢١١، باريس ١٩٤٨.

(٨) إفريقيا، ص ٢٢، الرباط ١٩٧٢

(٩) مجهول ص ١٩٩، الإسكندرية ١٩٥٨

(١٠) ابن خلدون: ٦ - ٤٣٦

(١١) لاستبصار: ١٩٠

(١٢) لكربي المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص ١٢٥، باريس ١٩١١

(١٣) الإدريسي: ٤٠

إلى حاشى الجبال تميزت طبيعة المغرب الأقصى بوجود عدد من السهول أو
لحقوص أو السائط تشعبها أنهار ووديان أهلتها للعمراة واحتذاب السكان،
حصوص سهل سايس حيث مدينة فاس قصبة الأدارسة. كما تتالى لسهول على
ساحل المحيط؛ كسهل غمارة وسهول تامسا ثم سهل دكالة الذى يمتد جنوبا حتى
وادي تسيقت ومعظم هذه السهول نشقها أنهار تصب فى المحيط الأطلسي؛ من
أهمها واد أم الربيع وواد درعة وهر ملوية وسبو وأخيرا واد إيجلي فى السوس
الأقصى^(١٤).

وقد ساعدت هذه الطبيعة الجغرافية على تنوع وثراء الحياة الاقتصادية، وهو
أمر ساعد بدوره على صياغة نمط الحياة سواء أكان حصريا أم بدويا. ودون
دخول فى التفصيلات يمكن الجزم بأن ثراء الإقليم كفل له نوعا من الاكتفاء
الذاتى الذى ساعد على قيام دول مستقلة قادرة على البقاء والاستمرار رغم ما
كان بينها من تنافس وصراع. كما أن هذا الثراء كان من أسباب تدخل قوى
خارجية كبرى تصارعت من أجل مد نفوذها على هذا الإقليم العنى

تشكل لرراعة أهم قوى الإنتاج الدائمة والقارة. فقد اشتهر المغرب
الأقصى بإنتاج كافة المحاصيل فصلا عن الفواكه والغروس والسخيل ولريتون^(١٥).
وامتدت المراعى سواء فى السهول أو على قمم الجبال أو فى الصحراء لتجعل
الثروة الحيوانية قوة إنتاج هامة^(١٦).

وقامت صناعة أولية نظرا لوفرة المعادن وخاصة الحديد والنحاس فى بلاد
السوس الأقصى^(١٧) ولوحود الفضة فى مناحم درعة وتدغة راجت صناعة الألون

(١٤) اسكري: ١٦٢.

(١٥) نسه: ١٩٣.

(١٦) س حوقل: صورة الأرض، ص ٨٤، ليد ١٩٣٨.

(١٧) اسكري ١٦٢.

الفصية التي كانت تصدر إلى الخارج^(١٨). واشتهرت بلاد السوس كذلك بصناعات تحويلية كالسكر^(١٩). كما اشتهر الإقليم بصناعة الخمر والزيت وغيرها مما تتطلبه «ضرورات العمران»^(٢٠).

وبديهي أن تزدهر التجارة الداخلية والخارجية بفصل أهمية موقع وموضع المغرب الأقصى. فقد غمرت الأسواق بالسلع الزراعية والصناعية خاصة في نميس وأغمات^(٢١). كما ازدهرت التجارة الخارجية مع المشرق ودول المغرب وبلاد الأندلس والسودان^(٢٢).

على أن هذه المقدرات الاقتصادية الهائلة أسوء استغلالها قبيل قيام دولة الإدارة ويرجع ذلك إلى السياسة الابتزازية الأموية سواء أثناء الفتح أو بعده^(٢٣). كذلك أسهمت ثورات الخوارج في مزيد من تخريب الإقليم. وإذا كنت دولتي الخوارج في شالة وسحلماسة قد تمتعتا بازدهار اقتصادي، فإن لأقاليم التي عمتها الفوضى السياسية قيل قيام دولة الإدارة عانت من المجاعات والأوبئة^(٢٤).

وبديهي أن تعكس المشكلات الاقتصادية على الأوضاع الاجتماعية، إذ سادت السخائم العنصرية القبلية والعنصرية تلك الأقاليم التي قامت فيها الدولة الإدريسية. لقد شهدت «فسيما» إثنية متعددة ومتصارعة. ففضلا عن البربر وجد العرب والفرس والسودان والصقالبة واليهود.

(١٨) عبد الكريم يصمين: المرجع السابق، ص ٦٠.

(١٩) الكري. ١٦١

(٢٠) ابن خلدون: المقدمة ٣١٣

(٢١) الكري: ١٥٢

(٢٢) ص ١٥٩

(٢٣) ابن عداري. ١ : ٨٣

(٢٤) محمود إسماعيل الخوارج في بلاد المغرب، ص ٢٧٢، ٢٧٣، القاهرة ١٩٨٦

وكان من الممكن أن تتعايش هذه العناصر ويدهر العمران في ظل حكم عادل وقار. لكن مفاسد الإدارة الأموية أججت نغرات العصية وسحائم العصرية. وبالسنة للبربر سكان البلاد الأصليين؛ فكانوا قبائل شتى. هناك لمصامدة الدين صربت قبائلهم من عمر تاز إلى السوس الأقصى حيث تعرضت بلادهم لمزيد من حملات ولاية القيروان وعمالهم من أجل السلب والسبي وهناك زناتة البدوية التي انتهزت حالة الفوضى السياسية لشخص في القبائل المستقرة كمكاسة وأوربة وهوارة وتطردها من بلادها إما إلى أقصى الغرب^(٢٥) أو إلى تلمسان^(٢٦).

أما العرب؛ فقد وفدوا إلى الإقليم بعد الفتح واستقروا في بلاد الهبط ومدن البصرة وأغمت ونميس^(٢٧). وقد نجحت بعض القبائل في تأسيس دولة عربية في نكور سنة ٩٢ هـ. وإذا كان الوجود العربي المستقر في المغرب الأقصى قد ساعد على تعريب البربر^(٢٨)؛ إلا أنه أفضى إلى إثارة الصراعات بين العرب، قيسية ويمنية، وبينها معاً وبين البربر^(٢٩).

أما الفرس؛ فقد وفدوا إلى الإقليم إبان حركة الفتوح. كما وفدت عناصر خراسانية برفقة الحملات العسكرية العباسية التي أنفذن لقمع ثورات البربر. ولم يلعب الفرس دوراً ذا بال في السياسة بقدر فعالية نشاطهم التجاري والعمراني؛ كتأسيس المدن وتشبيد قوات الري المخطاة^(٣٠). إلا أن وجودهم في بعض

(٢٥) عبدالكريم يصعين: المرجع السابق، ص ٨٤.

(٢٦) لكري: ٣٦، ٩٣، ١٤١.

(٢٧) ص ١٥٦.

(٢٨) محمود إسماعيل: الخوارج، ٢٠٧.

(٢٩) ص ٢٨، ٢٩.

(٣٠) محمود إسماعيل: مغريات، ص ٨٢ وما بعدها، فاس ١٩٧٧.

المناطق التي استقر بها العرب لم يخل من إثارة نزعات شعبية خاصة في بلاد
الريف وبلاد الهبط^(٣١)

كما أن عناصر أندلسية وفدت إلى المغرب الأقصى نتيجة أسباب سياسية
واقتصادية وغالباً ما كانت تستقر في الجهات الشمالية أو في المدن الهامة^(٣٢).
وقدر لها أن تلعب دوراً عمرانياً إيجابياً فضلاً عن آخر سياسي سلبي خصوصاً
بعد قيام دولة الأدارسة.

وبالمثل وفدت من الأندلس عناصر صقلية استخدمت في المحال البحري
في خدمة دولة مكنور^(٣٣) أو حرى استجلبها لتباع في أسواق الرقيق. وكثيراً
ما تفجر الصراع بين هذه العناصر وبين سكان البلاد من البربر^(٣٤).

أما اليهود؛ فقد وفدوا إلى المغرب الأقصى منذ وقت مبكر^(٣٥). وقد هيمنوا
على النشاط المالي فضلاً عن التعدين^(٣٦). كما شكلوا طبقة موسرة كانت تتعرض
دوماً للمصادرة والاضطهاد.

ومن إفريقية السوداء وفدت عناصر سودانية استقرت في السوس الأقصى
وأعمات^(٣٧) وواحة تافيللت وقد استخدموا في إرشاد وحراسة القوافل التجارية،
كما جرى استرقاق الكثيرين منهم لبيعوا في أسواق النخاسة^(٣٨).

(٣١) ليكري: ١١٥.

(٣٢) نفسه ١٠٩.

(٣٣) نفسه ٩٣.

(٣٤) نفس المصدر والصفحة.

(٣٥) عبدالكريم يصعير: ٩٠.

(٣٦) الاستعمار: ٢٠٢.

(٣٧) ليكري: ١٥٨، ابن حوقل: ٩٥.

(٣٨) ليكري: ١٠٦.

وإذا حار الحديث عن الباء الطبقي في المغرب الأقصى قبل قيام دوله لأدارسه، يمكن القول بظهور الطبقات نتيجة التباين في حيازة الثروة؛ برغم غلبة لسي القسدية^(٣٩) على الصعيد الاجتماعي. فقد تبلورت أرستقراطية تقني^(٤٠) الأرض وتحتكر استغلال المناجم وتشتغل بالتجارة خصوصاً مع بلاد السودان كما وجدت طبقة وسطى حرفية أغلب عناصرها من العناصر الوافدة من المرس والأندلسيين واليهود وفي سمح الهرم الاجتماعي تقف طبقة العوام وأغلبها من البربر والسودان. وقد أدى هذا التباين الطبقي إلى صراعات اتحدت الطابع العنصري والطائفي مهدت لسجاح الدعوة الإدريسية الزيدية - الاعترالية التي تبنت لعدالة الاجتماعية.

أما عن الخريطة المذهبية؛ فقد صيغت وفق مبدأ الاختلاف ولتنافس برغم عبية الإسلام على معظم السكان. كما تعثرت حركة التعريب - على خلاف ما ذهب إليه بعض الدارسين^(٤١) - نتيجة مفاصد الإدارة الأموية وتمرکز لعناصر العربية في إمارة نكور، وحنوح بعض القبائل إلى معارضة العروبة كقبيلة أوربة التي عانت من سياسة التعصب العربي إبان الفتح وبعده^(٤٢)؛ حتى وصل الحد إلى تمسك بعض القبائل الأخرى بدياناتها القديمة مكابة في الفاتحين العرب. فالنصرانية لم تعدم وحوود أتناع حتى في بعض المدن الشمالية؛ كانوا يتبعون كنيسة لإسكندرية^(٤٣). وانتشرت اليهودية في نكور ووداي وفازاز وتادلا ودرعة^(٤٤). كما

(٣٩) رجع يلف لأكوست: العلامة اس حلدون، ص ٢٨، بيروت ١٩٧٤،

محمد عبد الحاربي العنصية والدولة، ص ٢٢، الدار الصفاء ١٩٨١

(٤٠) نظر سامية توفيق انتشار الإسلام والثقافة العربية في بلاد المغرب، ص ١١٠، القاهرة ١٩٨٦

(٤١) ص ١١١ - ١١٢

(٤٢) بن عبدالحكم: فتوح مصر والمغرب، ص ١٩٨، لندن ١٩٢٠

(٤٣) أسكري: ١٦١

(٤٤) عبدالكريم بصبغي: ١٠٤

أن بقايا الوثنية - كعبادة الكباش - ظلت موحودة على شكل حيوب معبدة في مرتفعات المغرب الأقصى كما لاحظ صاحب كتاب الاستبصار^(٤٥) بل إن بعض القبائل التي اعتنقت الإسلام لونه باللون هذه المعتقدات القديمة سواء في الطقوس أو الاعتقاد في الكهانة والحر وبعض العادات الجسية التهتكية

أما عن المذاهب التي وجدت بالمغرب الأقصى خلال القرن الثاني الهجري، فأشهرها انتشاراً قبل قيام دولة الأدارسة؛ هو المذهب الخارجي الصفري^(٤٦). وليس أدل على سيادته من أن دولتي المذاريين والبورغواطيين تأسستا انطلاقاً من أيديولوجيته. كما أن إمارات صفرية صفري وجدت كذلك بالمغرب الأقصى؛ مثل إمارة بني وكيل وإمارة برغوت من سعيد التتاري^(٤٧)

وانتشر مذهب المعتزلة بين قبائل أوربة وزناتة ومزاتة^(٤٨) كما وجدت تجمعات وأصلية في درعة والسوس الأقصى وشرق ملوية وجبال فازاز^(٤٩).

وغلب مذهب مالك على إمارة مكنور، كما انتشر في سلا وأصيلة فصلاً عن بلاد القعدة، حيث تركز المالكية في الأربطة لجهاد البورغواطيين، وفي السوس الأقصى لجهاد اليهود^(٥٠).

ووجد مذهب أبي حنيفة طريقه إلى المغرب الأقصى خصوصاً بعد قيام الخلافة العباسية^(٥١) كما بدأت إرهابات التشيع تحتاح المغرب الأقصى مع

(٤٥) مهران: ص ٢٠٠

(٤٦) عمود إسماعيل: الخوارج، ص ٤٢ وما بعدها

(٤٧) الكري: ١٣٧

(٤٨) من حوقل: ٩٤

(٤٩) عبدالكريم بيصين: ١١٢

(٥٠) ابن حوقل: ٨٢، عبدالكريم بيصين: ١١٤

(٥١) السلاوي: الاستقصاء، ج ١، ص ١٣٧، الدار البيضاء ١٩٥٤

الدعوة الريدبة الاعترالية؛ كما سنوضح في الفصل التالي.

هكذا شهد الإقليم فيفساء دينية ومذهبية أسهمت في تأجيج السحاثم العصبية واتحدت أعطية لحركات سياسية مهدت لقيام الدولة الإدريسية

ولن نسترسل طويلاً في سرد التطور السياسي بالإقليم إلا بالقدر الذي يخدم موضوع الدراسة. معلوم أن المغرب الأقصى فتح على أثر حملات موسى بن نصير. ومعلوم أيضاً أنه أصبح تابعاً لولاة بني أمية بالقيروان الذين عينو عياهم على سائر أقاليمه ونظراً لتطرفه جغرافياً؛ عانى من مفاسد الإدارة الأموية أكثر من سائر الأقاليم الأخرى. وهذا يفسر سر إقبال قبائله على اعتناق المذهب الخارجي الصفري المتطرف. كما يفسر أيضاً سبقها إلى إعلان الثورة على بني أمية، كذا سبقها في تنويع ثوراتها بتأسيس دول مستقلة عن الخلافة الأموية ومن بعدهم العباسية.

وبرعم تأسيس هذه الدول؛ سواء أكانت سنية كدولة بكور أو خارجية كدولتي بورغواطة وبني مدرار؛ فإن أياً منها لم تستطع تحقيق وحدة الإقليم سياسياً. بل أدى الصراع بينها إلى ظهور إمارات صغرى طائفية منتهزة حلول الفوضى والاضطراب فصلاً عن الفراغ السياسي.

هكذا شهد المغرب الأقصى حالة من التمزق والتشردم السيمي والإثني والطفي والمذهبي أفضت إلى عبثة الظروف لحاح الدعوة الريدبة - الاعترالية التي مهدت لقيام دولة الأدارسة.

أما عن هذه الدعوة؛ أصولها وأساليبها وأهدافها؛ فذلك ما سيجلج في المسحث التالي.

الفصل الثالث الدعوة الزيدية في بلاد المغرب

سبق إثبات انبثاق الحركات الثورية الزيدية في الشرق من دعوات سرية مظلمة كما سبق الحديث عن دعوة سرية أحكمها المعتزلة المتعاطفون مع ثورة زيد بن عبي والمشاركون في الثورات الزيدية التالية ضد بني العباس بعد أن اندمجوا في الدعوة الزيدية التي أسسها محمد النفس الزكية

وما نحاول إثباته في هذا المبحث - الذي نزعج جدته - أن الدعوة الزيدية - الاعترالية وصلت إلى المغرب ومهدت لقيام دولة الأدارسة. فما هي القرائن والأدلة على وصول كل من الدعوتين - إبان مرحلة استقلال كل منهما عن لأخرى - إلى بلاد المغرب؟ وما هي الأسباب التي أفضت إلى اندماجهما في دعوة واحدة سواء في الشرق أم في المغرب؟

بخصوص الدعوة الزيدية في المغرب؛ نعلم أنها بدأت بعد قيام خلافة العباسية. يقول ابن الخطيب^(١): «كان للزيدية من الحسينيين الطالبيين درية علي بن أبي طالب دعوة زاحوا بها أيام العباسيين». وكان الدعاة يفتنون من لشرق إلى إفريقية - التي كانت مستقر دعاة الخوارج من قبل ودعاة لفواطم من بعد - باعتبارها موسطة المغرب وفي ربوعها يمكن اتصال الدعاة برؤساء القبائل،

(١) أعمال الأعلام، ج ٣، ص ١٨٨، الدار البيضاء ١٩٦٤.

ومنها يخرج الدعوة إلى سائل بلاد المغرب أيضا. وأول من وصلها من دعة الزيدية عيسى بن عبدالله الذي أنفذه محمد النفس الزكية «فأحابه خلق كثير من قبائل البربر»^(٢). ومع ذلك عاد أدراجه إلى الشرق ربما خوفا من عيون العباسيين بإفريقية أو للمشاركة عن كثب في الثورة عليهم.

وقد بعث محمد النفس الزكية أخاه سليمان إلى بلاد المغرب يدعو إليه؛ فسرل تلمسان^(٣) بعد رحلة طويلة عبر مصر وبلاد النوبة والسودان وبلاد الزاب. وبدو أن الخوف من عيون العباسيين كذلك كان من وراء تحاشي سليمان اتخاذ الطريق الساحلي المباشر من برقة إلى تلمسان. وظل سليمان بتلمسان يدعو للحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بعد مقتل محمد النفس الزكية وأيدولة رئاسة الدعوة إلى الحسين. وبدو أنه أحرز نجاحا ملحوظا قبل عودته إلى الشرق للمشاركة في ثورة الأخير على بني العباس. وحل محله إدريس بن عبدالله الذي كان يدعو كذلك لإمامة الحسين بن علي. لكن مقامه في تلمسان لم يطل إذا اضطر للعودة كذلك إلى الشرق للمشاركة في معركة فتح المشهورة^(٤).

وبعد الكارثة التي حلت بالعلويين نفخ؛ عاد سليمان إلى تلمسان مرة أخرى يدعو لإمامة يحيى بن عبدالله الذي تمكّن من تأسيس دولة بطبرستان^(٥). ثم لحق به إدريس بن عبدالله للمرة الثانية من أجل الدعوة لأخيه يحيى كذلك. فلما علم بنهايته أقام الدعوة لنفسه. وفي نفس الوقت وصل إلى إفريقية - نفس الغرض - داود بن القاسم بن إسحق بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب^(٦).

(٢) ابن أبي ررع: ١٥

(٣) نصه: ١٦

(٤) نص النصير والصفحة

(٥) ابن خلدون: ٤ ٣٦

(٦) المغرب: ١٢٢.

وهذا يعني الكشف عن حقيقتين هامتين؛ الأولى أن الدعوة المردة واصلت استمراريتها بعد معركة فتح. والثانية أن إدريس بن عبد الله عندما وصل تلمسان للمرة الثانية ومنها انتقل إلى طنجة واتصل بزعيم قبيلة أوربة لتأسيس دولة الأدارسة سنة ١٧٢هـ؛ لم يكن نسيحة صدقة عفوية، أو مجرد هروب من خطر العاسيين، كما تصور الدارسون؛ بقدر ما كان يعد العدة من خلال دعوة محكمة وتنظيم دقيق لتأسيس دولة علوية بالمغرب الأقصى دليل على ذلك أنه يبان رحلته من مكة عبر مصر إلى المغرب كان يرافقه موله راشد الذي لم يكن اختياره عبث إذ نعلم أنه ينتمي إلى قبيلة أوربة البربرية^(٧) وهو أمر يتيح لإدريس الاتصال بإسحق بن محمود بن عبد الحميد زعيم أوربة يقول السوسني^(٨) «وراشد بن منصت الأوربي كان قد سبي مع أبيه في غزوة موسى بن نصير وقفل مع أبيه إلى المشرق وهو صغير، ثم أتى مع مولانا إدريس ودله على المغرب».

ونرى أن دور راشد كان أكبر من مجرد أن «يدل إدريس على المغرب»؛ ذلك أن إدريس كان على دراية بمسالك المغرب الذي قدم إليه من قبل داعية لمحمد النفس الزكية كما أوضحنا سلفاً. كانت مهمة راشد إدريس هي تمهيد الاتصال بين إدريس وإسحق الأوربي لتأسيس دولة بني إدريس وإجماع المصادر على عتاق إسحق مذهب المعتزلة - كما سنوضح فيما بعد - يقودنا إلى حقيقة جديدة؛ وهي اندماج دعوتي الزيدية والمعتزلة في بلاد المغرب قبل قيام دولة الأدارسة تلك الحقيقة التي أشار إليها المقدسي في إشارة عابرة لكنها جد خطيرة^(٩).

(٧) عبد الطيف السمداني: المرحوم السابق، ص ١٥

(٨) الدرر النسية في أخبار الدولة الإدريسية، ص ٤٧، القاهرة ١٩٥٤

(٩) المقدسي أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٢٤٣ - ٢٤٤، ليد ١٩٠٦

وقد سبق إثبات حقيقة الاندماج في الشرق - كما أثبتنا في دراسة^(١٠) سابقة - أن دعوة المعتزلة أثمرت في بلاد المغرب قبل اندماجها في الدعوة الزيدية. إذ قدر لها الانتشار في إفريقية والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى على نحو خاص. لذلك لن نخوض في الموضوع إلا بالقدر الذي يسهم في حلحلة «إشكالية» العلاقة بين إدريس وبين إسحق الأوربي.

ذكر البلخي^(١١) أن «واصل أنفذ إلى المغرب عبدالله بن المبارك؛ فأجابه الخلق». ونعلم أن دعوة المعتزلة الأوائل اتخذوا من إفريقية مقرا حيث كانوا يتحفون في ملابس العلماء والتجار ويتصلون بزعماء القبائل خاصة من زناتة وأوربة^(١٢). ولما كانت زناتة تصرب في كل نواحي المغرب من برقة إلى طنجة؛ فهذا يعني انتشار الاعتزال في سائر ربوع بلاد المغرب وخاصة في المغرب الأقصى؛ حيث اعتنقته قبيلة أوربة التي كانت تتطلع إلى دور سياسي مرموق.

يرجح ذلك ما أقدمت عليه من إعداد سياسي وعسكري؛ إذ أن مدينة البيضاء وحدها حوت «مائة ألف معتزلي يحملون السلاح»^(١٣). ومدينة طنجة كان كل سكانها معتزلة^(١٤).

وما جرى من اندماج الدعوتين الزيدية والاعتزالية في المشرق والمغرب لم يفت في طموحات أوربة فلم تمنع في العمل على تأسيس دولة تكون رياستها للإمام علوي زيدي؛ طالما كانت هي العنصرية المؤسسة. وعلى ذلك نرجح أن

(١٠) محمود إسماعيل - مغربيات، ص ١٢٣ وما بعدها.

(١١) مقالات الإسلاميين، ص ٦٦، تونس ١٩٧٤.

(١٢) ص ١١٠.

(١٣) ص ١٠٨.

(١٤) ص ١١٠.

إسحق كان يعم سلفا بقدم إدريس لتقلد حكم هذه الدولة، كما كان يعد
المعدة لاستقباله ومؤازرته. وإلا فما تفسير قعوده عن تأسيس الدولة قبل مقدم
إدريس؟ وما تفسير نزول الأخير بطنجة وإنفاذ المولى راشد للاتصال بإسحق؟
وأخيرا ما تفسير عدم إقامة إدريس بتلمسان التي كانت أهم معاقل الدعوة
الزيدية؟ يقودنا هذا إلى طرح السؤال الأساسي، لماذا وكيف اندمجت الدعوتين
الزيدية والاعتزالية في المغرب وتضافرتا على تأسيس دولة الأدارسة؟ أثبتنا من
قبل وقوع هذا الاندماج في الشرق فكريا ودعائيا وسياسيا وعسكريا. وأثبتنا
كذلك إخفاق «المشروع السياسي» الزيدي المعتزلي لإقامة دولة في الشرق؛ نظرا
لسيطرة الدولة العباسية وهيمنتها على قلب «دار الإسلام». لذلك اتبع لزيدية
والمعتزلة نفس سياسة الخوارج في اللجوء إلى المغرب، خاصة وأن بني العباس لم
يدخلوا وسعا في اصطهاد الزيدية والمعتزلة معا بعد معركة فخ. وهذا يفسر قدوم
أعداد غفيرة منهم إلى بلاد المغرب عموما والمغرب الأقصى على نحو خاص ونجاح
الدعوتين الزيدية والاعتزالية في كسب أنصار من قبائله حتى قبل اندماجهما
معا^(١٥). إن التوقيت المشترك لقدوم الزيدية والمعتزلة إلى المغرب الأقصى ليس
صدفة محانية بل كان نتيجة تدبير وإعداد سابق لتحقيق هدف موحد.

ومن سياق الأحداث نعلم أن كفة المعتزلة في المغرب الأقصى خصوصا
رححت كفة الزيدية. ولما أن نتساءل، لماذا احتوت الدعوة الزيدية نظيرتها
الاعتزالية في المغرب برغم رححان كمة الأخيرة؟

ليس بذلك من تفسير إلا أن يكون وقوع اتفاق مسبق لتوحيد الدعوتين في
المغرب وتكريسهما معا لتأسيس دولة إدريس. لم يكن ذلك مستغرب بعد أن

(١٥) نعاصي عبد الحمار: فصل الاعتزال، ص ٢٢٦

انحدت الدعوتان من قبل في الشرق كما سبق أيضا؛ حتى قيل بأن المعتزلة في الشرق كانوا إحدى فرق الزيدية^(١٦). لقد احتوى الاعتزال التشيع الريدي فكريا حتى أن زعماء المعتزلة في الشرق حظوا بتقدير الزيدية فعظموهم بدرجة تعظيمهم آل البيت^(١٧).

أما على الصعيد السياسي؛ فقد احتوى التشيع الزيدي الاعتزال؛ لأن زعماء المعتزلة ما كان يوسعهم ماطحة مكانة آل البيت إذا ما تعلق الأمر بالزعامة السياسية. ولم يجد المعتزلة عضاضة في ذلك خاصة وأن فكرهم السياسي يشترط العمل تحت راية إمام عادل ليس إلا.

كل هذا يفسر مناصرة معتزلة المغرب إدريس بن عبدالله سياسيا. ونرى أن دعائهم مهدوا له أمر رحلته من مصر إلى طنجة حتى لقائه مع إسحق الأوربي زعيم معتزلة المغرب الأقصى وفق إعداد مسبق ونخطة مدروسة واتفاق معقود.

إن هذا الإعداد والتخطيط والاتفاق بين الزيدية والمعتزلة على توحيد العمل لسياسي في المغرب من أجل إقامة دولة يترأسها إمام ريدي؛ قمين بإنهاء الخلاف لثارت بين الدارسين حول تأويل نصوص وردت بخصوص اللقاء بين إدريس بن عبدالله وإسحق الأوربي. كما أنه خلقت أيضا حلحلة «الإشكالية» الملغزة التي طالما توقف الدارسون عن البت فيها أو أخطأوا في أحكامهم بصدد.

وهناك عرضا لهذه النصوص، وتحليلا لمصامينها في ضوء رؤيتنا الجديدة للقضية

(١٦) حرموتسيهر، العميلة والشرعة في الإسلام، ص ٢٢٢

(١٧) أشهر مناني، ج ١، ص ١٦٢

يقول السكري^(١٨): «نزل إدريس على إسحاق الأوربي المعتزلي؛ فتابعه على مذهبه». ويقول جغرافي مجهول^(١٩): «كان إسحق معتزلي المذهب فوافقه إدريس على مذهبه». ويقول البلخي^(٢٠): «إشتمل إسحق الأوربي على إدريس بن عبد الله حين ورد عليه؛ فأدخله في الاعتزال». ويضيف «إن أنصار ولد إدريس بن عبد الله. إلى يومنا بطنجة وما والاها من بلاد المغرب هم المعتزلة»^(٢١). ويقول ابن المقفّ^(٢٢): «والعالم على طنحة المعتزلة. وعميدهم إسحق بن عبد الحميد وهو صاحب إدريس». ويقول ابن أبي زرع^(٢٣): «... فقل إدريس على صاحبها إسحق الأوربي المعتزلي؛ فأقبل عليه إسحق وأكرمه وبالع في بره؛ فأظهر له المولى إدريس أمره وعرفه بنفسه؛ فوافقه على حاله وأنزله داره وتولى خدمته والعناية بشؤونه».

برغم اختلاف هذه المصادر حول مَنْ من الطرفين وافق الآخر على مذهبه؛ نرى أن الخلاف غير ذات موضوع خصوصا بعد اندماج الاعتزال والتشيع الزيدي فكريا وسياسيا كما أوضحنا من قبل. لكن ذلك لا يعني أن إدريس تخلى عن المذهب الزيدي؛ كما رأى أحد الدارسين^(٢٤) مبررا ما تظهره النصوص للوهة الأولى من تحوله إلى الاعتزال على أنه من باب «التقية»^(٢٥).

إن ما نراه في هذا الصدد أن التشيع الزيدي جرى احتواؤه فكريا من قبل الاعتزال، أما سياسيا فقد حدث العكس، وهذا ما برهنه تتابع الأحداث؛ حيث

(١٨) المغرب: ١١٨.

(١٩) لاستبصار: ١٦٥.

(٢٠) مقالات لإسلاميين، ١٠٩.

(٢١) مسه ١١٩.

(٢٢) مختصر كتب البلدان: ٨٠: بريل ١٨٨٥.

(٢٣) المعرطاس: ١٩.

(٢٤) عبد لطيف السعداتي: ٢٠.

(٢٥) مسه ٢١.

كانت رعاياه الدولة التي تصافر الطرفان على إقامتها، لإدريس بن عبد الله الإمام العلوي الريدي وهما تبرر قيمة نص ابن أبي زرع السابق الذي يؤكد استبطن قراءته صدق ما يذهب من موافقة إدريس مذهب إسحاق وموافقته إسحق سياسة إدريس.

وليس أدنى على صالة الجانب المذهبي بالقياس للاعتبار السياسي من عدم إعلان إدريس عن حقيقة مذهبه في خطبته الأولى بعد أن ريعته أوربة والقبائل سنة ١٧٢هـ، فلم يفصح عن ريديته أو اعتزاله بقدر ما اهتم بإبراز كونه إماماً عادلاً من آل البيت. ولسوف نجد مصداق ذلك فيما شجر بعد من خلاف بين إدريس الثاني وإسحق الأوربي فيما بعد، حيث علت الأسباب لسياسة على اخوان المذهبية^(٢٦).

لقد اقتضت الحكمة عدم إثارة «المسألة المذهبية» إبان تأسيس دولة تعددت مذهب سكانها ما بين شيعية واعتزالية وسنية وخارجية. وقد فطن بن حلدون^(٢٧) إلى حقيقة عزوف إدريس الأول عن إعلان ريديته حين قال: «يموت يحيى بن عبد الله... خفت دعوة الريدية حياء من الدهر».

خلاصة القول - إن الدعوة الزيدية - الاعتزالية نجحت في الإفادة من ظروف المغرب الأقصى في تأسيس دولة نواة تطلعت للتوسع شرقاً لتضم سائر معالم الإسلام. وإد معول على مظربة اس حلدون في قيم الدور؛ نرى أن المذهب ريدي - الاعتزالي شكل إيديولوجية هذه الدولة بينما شكلت قبيلة أوربة عصيتها على الأقل في مرحلة التأسيس^(٢٨) ومن ثم تسقط دعاوى معظم

(٢٦) السكوي ١٢٣

(٢٧) لعد ٤ ٤٦

(٢٨) بن حلدون ٦ ٢٩٦

الدارسين التي ترى في قيام دولة الأدارة مجرد حادث عفوي مجاني، لشت حححا في القول بأن قيام هذه الدولة نتحة إعداد وتخطيط مسبق أحكمته الدعوة الريدية - الاعتزالية التي اتقت مع طموحات العصية وطموحاتها. أما عن كيف اضطلعت العصية بمهمة التأسيس؛ فهذا ما سيوضحه المبحث التالي.

الفصل الرابع تأسيس دولة الأدارسة

لا نعلم عن حياة إدريس المؤسس قبل قيام دولته إلا النذر اليسير^(١). إذ عرفناه داعية بتلمسان مرة يدعو لمحمد النفس الزكية وأخرى لأخيه يحيى. ثم مقاتلاً بفخ وهارناً بعد مذبحتها عبر مصر إلى المغرب الأقصى؛ حيث التقى بإسحق الأوربي الذي أخذ له البيعة من قبائله سنة ١٧٢هـ.

وقد نسج المؤرخون حول رحلة إدريس بن عبدالله إلى المغرب روايات ذات طابع اسطوري؛ إذ تذخر بالكرامات والمناقب التي تصوره مطارداً مغامراً تمكن من تأسيس دولة دون سابق إعداد أو تدبير. ومن هنا جاء الاختلاف والتناقض حول كيفية الحرب ووقائع الرحلة.

والصواب - فيما نرى - أن دعاة الزيدية آمنوا له الإقامة بمصر والخروج منها إلى برقة حيث تكفل دعاة المعتزلة بأمر رحلته إلى المغرب الأقصى. لدينا على ذلك وجود تنظيم علوي زيدي في مصر استمر حتى بعد قيام دولة الأدارسة. إذ أوردت إحدى الروايات^(٢) تشيع والي مصر علي بن سليمان الذي دبر له الإقامة بها

(١) مسموم أنه بن عائكة المحرومية التي أنجب أبوه عبدالله منها أخويه عيسى وسليمان كما تروح أبوه أبيض من هند به أبي عبيدة من آل عبدالعري وأنجب منها إخوانه محمد النفس الزكية وموسى أما أخواه يحيى وإبراهيم فهما من أم ثالثة تسمى قرية بنت عبدالله

(٢) بن أبي ررع: ١٧

وأمر خروجه منها. وورد في أخرى^(٣) أن واضح مولى صالح بن الخليفة المنصور صاحب بريد مصر هو الذي اصطلح بتلك المهمة وأيا ما كان الأمر يرى أن جهاز الدعوة في مصر كان على علم بمقدم إدريس رفقة مولاة راشد بهم ذلك من قول ابن خلدون^(٤) أن «واضح علم بشأن إدريس وأتاه إلى الموضع الذي كان به مستحياً ولم ير شيئاً أحلص من أن يحمله على البريد إلى المغرب»

ونجاح إدريس وراشد في الخروج من مصر إلى برقة دليل على تشجيع الكثيرين من عمال العباسيين. وخروجه مستراً في زي غلام لراشد «بأمره فيأتمر له» قرية على الزراعة في العمل السيامي السري الزيدي من ناحية، وعلى حرص بني العباس على تعقب من بقي من العلويين بعد فسخ للحؤول دون استمرارية دعوتهم من ناحية أخرى.

على كل حال - اتجه إدريس رفقة مولاة راشد إلى برقة ومنها إلى القيروان ثم إلى تلمسان فطنجة. وكلها مدن تجارية هامة مشهورة على الطريق الساحلي بين المشرق والمغرب. وهو طريق غاص بالقوافل التجارية جيئة وذهاباً لطلالما ارتاده تجار المعتزلة «الذين شكلوا نخبة من الأرستقراطية الفكرية المنحدرة من أسر تجارية» على حد قول باحث معروف^(٥). وهو أمر لا يخلو من دلالة على دور المعتزلة ودعاتهم في المغرب في تمهيد الطريق لإدريس من برقة إلى طنجة^(٦).

من الثابت أن إدريس حتى وصوله تلمسان كان يدعو لإمامة أخيه يحيى بن عبدالله الذي أسس دولة في بلاد الديلم. فلما وافاه خبر نهائيه - عن طريق جهاز

(٣) ابن الخطيب: ١٩٠

(٤) المعر، ٢٤: ٤

(٥) اعنيب صبحي القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية، ص ٦٢، تونس ١٩٦٨

(٦) عن معتزلة المغرب الأوسط، راجع محمود إسماعيل، الخوارج، ٦١، ٦٢،

وعن معتزلة المغرب الأقصى راجع لعن المؤلف، مغريات: ١٢٨.

لدعوة بطبيعة الحال - أخذ يدعو لنفسه^(٧). وعدم بقائه بتلمسان - برعم جهوده
لسانقة وجهود غيره في الدعوة للمذهب الزيدي - والتوجه مباشرة إلى طححة
والاتصال بإسحق الأوربي لتأسيس الدولة؛ أمر له دلالة على اتفاق مسبق بقيام
الدولة في المغرب الأقصى. ذلك الاتفاق الذي جرى بين الزيدية والمعتزلة بعد
اندماج دعوتيهما كما أوضحنا من قبل.

وليس أدل على ذلك من قول أحد الباحثين الثقة^(٨) «كانت طححة معقلاً
لدعوة اعتزالية تتصل بالقبائل لتكوين الخلايا». يؤكد ذلك انفاذ إدريس مولاه
راشد من طنجة إلى ويلي للاتصال بإسحق الأوربي وإعلامه بمقدم إدريس.
وبالفعل جرى الاتفاق على أن ينزل إدريس مدينة ويلي حيث رحب بإسحق
بمقدمه وشرعا في إعداد العدة لإعلان قيام الدولة^(٩). وبالفعل بويع إدريس
الأول سنة ١٧٢هـ من قبل قبيلة أوربة أولاً ثم من القبائل الأخرى مثل زناتة
ومكاسة وغياثة وغمارة وغيرها^(١٠).

دشن إدريس قيام دولته بخطبة هامة من المفيد أن نثبت بعض نصوصها
ونحلل ما تنطوي عليه من دلالات هامة. وهاك بعض ما قال:

« الحمد لله الذي جعل النصر لمن أطاعه وعاقبة السوء لمن عانده. ولا إله
إلا الله المتفرد بالوحدانية. أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وإلى العدل في
الرعية والقسم بالسوية. . اعلموا عباد الله أن من أوجب الله على أهل طاعته

(٧) مجلة الوثائق: عدد ١ : ٢٧.

(٨) عبد تطيع السعداني : ١١

(٩) ابن أبي زرع : ١٩

(١٠) صفح ٢٠

المجاهدة لأهل عدلوته ومعصيته بالبد واللسان وفرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»^(١١).

ونتم هذه الخطبة عن براعة سياسية إذ حرص إدريس على إرضاء كافة القبائل على اختلاف مذاهبها. فقد استرضى أهل السنة حين دعى إلى «كتاب الله وسنة نبيه». كما استرضى الخوارج حين نص على «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». وتعرأقواله في «التوحيد» و«العدل» عن حرصه على كسب المعتزلة.

ولملاحظ أن الخطبة تخلو من أي ذكر للتشيع الأمر الذي يوضح أهمية أهداف السياسي وتشهد الخطبة عموماً قرينة على خطأ بعض الدارسين^(١٢) الذين شككوا في دور المعتزلة حيث قالوا بخلو الدعوة والدولة الإدريسية من تأثيرهم تماماً وعلى العكس نرى أن معتزلة المغرب الأقصى كانوا عماد الدعوة في الطور المغربي وعصب الدولة إبان تأسيسها على الأقل.

وفي انضمام الخوارج إلى إدريس الأول قرينة على ضالة الجانب الاعتقادي بالقياس إلى الجانب السياسي، خاصة وأن الحركة الخارجية لصيرية تصدعت بالمغرب لأقصى بعد هيسة زناتة عليها إبان ثورة ميسرة. وفي مؤازرة المالكية ولأحباب إدريس الأول ما يعبر عن التقارب بين المذهب الزيدي ومذاهب أهل السنة. ألم يؤرر الإمامان مالك وأبو حنيفة ثورات الربدية في الشرق؟.

على كل حال - أدرك إدريس الأول ببصيرته السياسية خطورة إثارة تشيعه حتى لا يحدث فرقة في وقت كان فيه بحاجة ماسة إلى تعاضيد الجميع فلم يصح إلا على أنه «يحمل أماته أهل البيت» ولم يشر حتى إلى اعتنار نفسه «إماماً» على

(١) عنه الوثائق ٤٠ - ٤٥

(١٢) نظر سعد رعلول عبد الحميد. ٤٢٩

الأقل في السنوات الأولى من حكمه^(١٣). وهو نهج سياسي نارع حرص ابنه إدريس الثاني على اتباعه حتى أواخر أيامه^(١٤) في مقابل ذلك ألح إدريس على «البعث الاجتماعي» حين أبان على عزمه على «العدل في الرعية والقسم بالسوية».

شرع إدريس الأول بعد بيعته في ترسيخ جنود دولته وكان عليه أن يؤسس عاصمة جديدة وأن يستن نظم الدولة ورسومها وأن يجهز الجيوش التي تكفل لها البقاء والاستمرار من ناحية والتوسع من ناحية أخرى.

وبخصوص تأسيس فاس؛ أثبتت مشكلة حول تاريخ بنائها وبالتالي حول مؤسسها. ولن نخوض في تناولها - لأننا وغيرنا سبق وأن تناولناها - إلا بالقدر الذي يخدم موضوع الدراسة أو يضيف جديداً إلى ما هو متعارف عليه.

كانت الرواية الشائعة أن إدريس الثاني هو مؤسس مدينة فاس؛ إذ شيد عدوة الأندلسيين سنة ١٩٢هـ ثم عدوة القرويين في العام التالي^(١٥). لكن العلامة بروفنسال جاء بنظرية جديدة فحواها أن إدريس الأول هو الذي بدأ تأسيس المدينة سنة ١٧٢هـ في الموضع الذي يحوي عدوة الأندلسيين. أما إدريس الثاني فقد أسس عدوة القرويين سنة ١٩٣هـ غربي مدينة أبيه على الضفة اليسرى

(١٣) من الأدلة في هذا الصدد أن إدريس الأول بعد بناء مسجد تلمسان مضى على محرابه «بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أمر به إدريس بن عبد الله دود أن يذكر لقب وإمام» بطر عبد اللطيف السعداوي: ٢٢.

(١٤) نلاحظ أن العملة الإدريسية حتى أواخر عهد إدريس الثاني تخلو من ألقاب الإمامة وشعارات الشعة.

انظر: Eustache: Op. cit. p. 71.

(١٥) سبق وأن أعلن شارل أندريه جوليان أن إدريس الأول هو مؤسس فاس لكنه لم يجد الوقت لاعماد عمرا ببطراً بشاعله مغلط قرية مواضعة. انظر تاريخ إفريقيا الشمالية، الترجمة لعربية، ص ٥٦، تونس ١٩٨٥.

من واد فاس . إذ استبعد بروفنسال أن يؤسس إدريس الثاني مدينتين متحاورتين في آن . وقد دعم نظريته ببراهين منطقية ونصوص تاريخية هامة فضلاً عن نقوش عملة ضربت بالمدينة سنة ١٧٢هـ تحمل اسم إدريس الأول^(١٦)

وبحر يرى وجهة هذه النظرية وضيف إلى حجج صاحبها قريبتين حديديتين هامتين؛ الأولى: العرف الذي جرى عليه كافة مؤسسي الدول المستقلة في بلاد المغرب ببناء عاصمة جديدة لكل دولة مستحدثة. حدث هذا بالنسبة لدولة بورغواطة التي أسست مدينة مثالة عاصمة لها ودولة بني مدرار وعاصمتها مدينة سجلماسة ودولة بني رستم التي اتخذت من تاهرت عاصمة لها. كذا دولة الأغالبة التي أسس مؤسسها مدينة العباسية واتخذها عاصمة بدلاً من القيروان. وثانيهما: حرص إدريس الأول على التحرر من سطوة أوربة؛ فلا أقل لذلك من مغادرة ويلي وإنشاء عاصمة جديدة . وإذا لم يقدر له الانتقال إلى فاس، فيعزى إلى انشغاله بالفتوح وخاصة في تلمسان التي استقر بها ثلاثة أعوام.

على كل حال - ينم اختيار موضع فاس عن حصافة ودهاء، فالمكان صالح للعمران؛ يجمع بين غزارة الماء - واد فاس^(١٧) - واعتدال الهواء وتوافر مواد البناء من أحجار وأخشاب^(١٨). هذا فضلاً عن موقعها الاستراتيجي على الطريق الرابط بين السهول الأطلسية والمغرب الأوسط وأهميتها بالنسبة لتجارة السودان.

وبالنسبة لإقرار النظم المالية والإدارية، اتبع إدريس أصول الشريعة فيما يتعلق بالخبايات. وتأثر بالنظم الإدارية القديمة في تقسيم الدولة إلى عمالات^(١٩).

(١٦) رجع، محمود اسماعيل: مقالات في الفكر والتاريخ، ص ٥٧، الدار البيضاء ١٩٧٩

(١٧) ابن أبي ررع ٣٣

(١٨) ص ٣٥، ٣٦

(١٩) سنده الشيخ المجتمع المغربي في عصر الولاة، رسالة ماحستير مخطوط

وبرغم استشارته بالخل والعقد استعان بعدد من الوزراء معظمهم من أوربة من أمثال عبدالمجيد بن مصعب وأخيه عمر وراشد بن مرشد^(٢٠).

وهذا يعكس نفوذ أوربة باعتبارها العصبية المؤسسة؛ ذلك النفوذ الذي حاول إدريس التحفيف من حدته عن طريق الاستعانة بقبائل البربر الأخرى وخاصة رباتة. وبرغم نجاح إدريس الأول - إلى حد ما في هذه السياسة طلت قبائل البربر خصوصاً أوربة تشكل حجر عثرة أمام فرص هيمنة «المحزن» بهم ذلك من نص أورده ابن حيان^(٢١) على لسان الأدارسة المتأخرين حين قالوا: «فلما صار جدنا إدريس إلى البربر واستجار بهم؛ أجاروه، ووضعوا له من بلدهم فرصاً توسط له ما بينهم من الأحكام من غير أن يضبطهم ضابط السطان».

أما عن تجهيش الجيوش فقد اعتمد إدريس على سائر قبائل البربر في دولته. يقول ابن أبي زرع^(٢٢) «وأخذ إدريس جيشاً عظيماً من وجوه قبائل زنادة وأوربة وصنهاجة وهوارة وغيرهم».

وبفصل هذا الجيش تمكن إدريس «من ضرب عصفورين بحجر واحد» - كما يقال - إذا تخلص من تأمر القبائل بأن صرف طاقاتها العسكرية في حروب خارجية كفلت له نوعاً من السيادة عليها جميعاً. هذا فضلاً عما ترتب على الفتوحات من موارد مالية وعناصر سكابية - وخاصة من مغراوة وبني يفرن - استعان بها في موازنة نفوذ أوربة.

ونلاحظ أن توجهات إدريس الأول العسكرية انطوت لذلك على أهداف سياسية واقتصادية واجتماعية وإن غلفها المؤرخون - القدامى والمحدثون - بطبع

(٢٠) حوليات: ٥٨

(٢١) مقتبس من أحبار أهل الأندلس تحقيق شالميتا، ص ٢٩٢، مدريد ١٩٧٩

(٢٢) لقرطاس: ٢٠

الحهاد الديني ويغفل إلينا أن إدريس الأول نفسه هو الذي أضفى هذا الطابع الديني ليكسب توسعاته نوعا من المشروعية. صحيح أنها أسفرت - ضمن ما أسفرت - عن «أسلمة» بعض العناصر الوثنية والنصرانية واليهودية في الحوب، لكن معظم السكان في كافة الأقاليم التي فتحها كانت على دين الإسلام واعتنقت مذاهب خارجية واعتزالية.

لم يكن حزا أن بوجه إدريس حيوشه للاستيلاء على مناطق ذات أهمية استراتيجية وثراء اقتصادي. ففي الحوب توجهت إلى سهول تامستا الخصبة فضلا عن طريق تارودانت الذي ينطلق منها نحو ذهب السودان. كما توجهت إلى تلمسان ذات الأهمية التجارية والاستراتيجية أيضا؛ فهي تقع على طريق التجارة بين المشرق والمغرب وهي الثغر الأول للدفاع عن دولة الأدارسة ضد أخطار الأغالبة في إفريقية.

ومهما كان الأمر؛ قاد إدريس الأول جيشه نحو الجنوب حيث فتح مناطق مندلاوة ومديونة وهزارة وماسة وتادلا. يذكر ابن أبي زرع^(٢٣) أن سكانها أسلموا طوعا أو كرها. وما يعني أنه تمكن من ضم أقاليم جديدة أخضعها لسلطة «المخزن» بعد أن كانت «سيية» فضلا عن انتزاع بعض أراضي بورغواطة التي كانت قد أقامت دولتها في العقد الثالث من القرن الثاني الهجري. ويخطيء المؤرخون^(٢٤) الذين ذهبوا إلى أن «إدريس فتح معاقلها وأسلم جميع أهلها على يديه» وهو قول خاطيء اللهم إلا إذا كان القائلون به يعتبرون البورغواطيين هراطقة وقد فندنا هذا الزعم من ناحيتين: الأولى، أن بورغواطة كانت على

(٢٣) المرطاس، ٢١

(٢٤) مع، ٢٠

المذهب الخارجي الصفري^(٢٥). والثانية أن حملة إدريس لم تنجح في صم ديارها حيث أستأسد الوردغواطيون في الحفاظ على استقلالهم^(٢٦).

توجه إدريس الأول بعد ذلك إلى منطقة تارا ذات الأهمية الاقتصادية والاستراتيجية أيضا. ففضلا عما قيل عن مناحها الغنية بالذهب، يعبر ممرها الطريق الجنوبي الوحيد إلى المغرب الأوسط والرباط كذلك بين الأراضي الواقعة على ضفتي المرتفعات الأطلسية. وإذا قدر لإدريس نشر الإسلام بين بعض لعناصر النصرانية في المنطقة؛ فالثابت أن سكانها من البربر كانوا مسلمين على مذاهب «المعتزلة والروافض والخبرية» ممن اعتبرهم البكري^(٢٧) أهل بدع وضلالة.

توجه إدريس الأول بعد ذلك لفتح تلمسان، ذات الأهمية الاقتصادية والاستراتيجية التي أوضحناها سلفا. ولم تواحه جيوشه لأيا في ضمها نظرا لأن الكثيرين من سكانها كانوا على المذهب الزبدي من ناحية ولأن قبائل مغراوة وبني يفرن الزناتية رحلت بزنانة المغرب الأقصى - التي اندرجت في جيش إدريس - من ناحية أخرى. تذكر المصادر^(٢٨) أن إدريس حين نزل خارج المدينة أتاه أميرها محمد بن نحرر المغراوي وبايعه «فدخل إدريس تلمسان واستقامت بها إمارة المغرب».

وهذا النص بالغ الأهمية في الدلالة على ما أصابه إدريس إلى دولته من إقليم غني بموارده المادية والبشرية، تلك التي استعان بها لدعم دولته الفتية. هذا

(٢٥) راجع: محمود إسماعيل: مغربيات، ص ١٣ وما بعدها

(٢٦) ص ٣٢

(٢٧) المغرب ٦٥

(٢٨) بن أبي زرع: ٢٠، السوسي: ٤٦

فضلا عن أهميتها بالنسبة «للمشروع» الإدريسي التوسعي شرقا نحو إفريقية ومن بعدها مصر وهذا يفسر لماذا ظل إدريس مقبلا بها قرابة أعوام ثلاثة.

ويبدو أن استيلاء إدريس الأول على تلمسان «باب إفريقية» أدخل اهتداع في قلوب العباسيين وعمالهم في إفريقية. ونظرا لاضطراب أمورها آنذاك واعتقار العباسيين - المشغولين آنذاك بالمشكلات المشرقية - إلى أسطول في البحر المتوسط يمكنهم من نقل الجيوش للقضاء على دولة إدريس؛ لذا الحليفة هرون الرشيد إلى أخيلة في لتحص من إدريس بالتواطؤ مع إبراهيم بن الأعرب عامله على بلاد لزاب.

ودون خوص في التفصيلات المعروفة في هذا الصدد استشر لرشيد وزيره يحيى البرمكي؛ فأشار عليه بإنفاذ سليمان بن جرير المعروف بالشهاج إلى المغرب لأغتيال إدريس^(٢٩) وقد نجحت المؤامرة وتم اغتياله سنة ١٧٧هـ.

لكن الدولة التي وطد إدريس الأول دعائمها صمدت في وجه التآمر العباسي الأغربي. إذ قادها المولى راشد حتى ولدت جارية لإدريس ولدا له هو إدريس الثاني. وقد تعهده راشد بالوصاية حتى قدر لإبراهيم بن الأعرب اغتيال راشد. وبمثل صمدت دولة الإدارة؛ حين خلف خالد بن إلياس العبدي المولى راشد في الوصاية على إدريس الثاني حتى شب عن الطوق وتولى سياسة دولته.

اخلاصة - أن تأسيس دولة بني إدريس لم يكن حدثا عفويا، بل كان تنويجا لضال الشيعة الزيدية في الشرق ودعوتهم التي احتوت دعوة المعتزلة في المغرب وإذا كانت الإيديولوجية الزيدية - الاعتزالية قد شكلت الدعوة؛ فإن قصة أورنة

(٢٩) لرفيق القرواي. تاريخ إفريقية والمغرب، ص ٢١٤، تونس ١٩٦٩

شكّلت العصية التي اتحدت طموحاتها مع أهداف الدعوة في إقامة دولة الإدارة.

أما عن تطور دولة الإدارة منذ عهد إدريس الثاني وحتى نهايتها سنة ٣٧٥هـ؛ فهو ما سنعرض له بالدراسة المفصلة في المبحث التالي.

البَابُ الثَّانِي
سِيَّاسَةُ الدُّوَلِ الرَّاسَةِ الدَّرْخَلِيَّةِ

تكتسي دراسة هذا الموضوع أهمية خاصة لعاملين أساسيين. أولهما: أنه رغم ما كتب عن الإدارة فإن دراسة الأوصاف الداخلية لدولتهم اتسمت بالسطحية والسرد الوصفي في أغلب الأحيان. وهذا راجع إلى ندرة المعلومات بالحوليات التي عرّضت للموضوع باقتضاب معالجة سيرة كل حاكم على حدة، مترجمة لحياته وأخلاقه وأهم أحداث عهده وما شابه. ومعظمها نسج على غرار ما كتبه ابن أبي زرع؛ وهو مؤرخ منقبي متعاطف مع الإدارة إلى أبعد الحدود. إذ يتفنن في ذكر فضائلهم ومناقبهم ويغض الطرف عن مثالبهم.

وقد أمكن تدارك هذا النقص بالرجوع إلى كتب الجغرافيين والرحالة؛ ككتب الملل والسحل التي تحوي معلومات ضافية عن العصبية والإثنيات والمذاهب والطوائف.

وثانيهما: خطأ التفسيرات المتعلقة بسياسات الإدارة الداخلية؛ حيث تبرز الرؤى العصبية والبيولوجية والإقليمية والأخلاقية، فضلا عن تضخيم دور المؤثرات الخارجية في صياغة الأحداث والوقائع الداخلية. ويكرر هذا الخطأ في النظر إلى المظاهر باعتبارها عللا وأسبابا. ونحن نرى أن هذه المظاهر تفسر في إطار الواقع الاقتصادي - الاجتماعي الذي أفرزها؛ مع التسليم بفعالية تأثيراتها في عصور التدهور والانحطاط حيث تختلط الأسباب بالسلات. وقد فطن العلامة ابن خلدون إلى ذلك حين طرح مفهومه عن العصبية والدولة. العصبية عنده قوة اقتصادية وكثرة شرية تتبلور بفضل الدعوة المذهبية هذا ما أثبتناه في دراسة

سابقة تغي عن اللجاج^(١).

وتتطبيق هذه الرؤية على ماجريات التاريخ السياسي الداخلي لدولة الأدارسة نجد أن قوة الدولة تتمثل في التوافق بين الإيديولوجية المذهبية وضمومات العصبية المؤسسة. فظالما حدث الانسجام والتوافق أمنت الدولة من أخطار العصبيات والطوائف. وحين يقع التعارض تتفاقم هذه الأخطار وتتحز الدولة عن مراجعتها.

وعلى ذلك يمكن تقسيم تاريخ الأدارسة إلى طورين متميزين: طور الازدهار، ويمثل عهود إدريس الأول والثاني ومحمد بن إدريس. وإبانة تمثلت قوة الدولة في جهاز سياسي وإداري وجبائي وجيش قوي وعاصمة مركزية تسيطر على كافة أقاليم الدولة، وتوجه طاقات سكانها إلى استغلال المقدرات الاقتصادية، كما توجه الإيديولوجية المذهبية لتكريس الوثام والوفاق بين كافة الإثنيات والطوائف. حتى إذا ما بدأت حركات الانتزاع ضد «المحرن» كانت تقمع في مهدها، وتستثمر طاقاتها العسكرية خارج الحدود. وحسباً دليلاً على قوة الدولة إبان هذه الحقبة أن لأدارسة أنفسهم كانوا عرباً وسطاً بحر من البربر^(٢)، كما كانوا شيعة زيدية يحكمون حشداً من عناصر شتى ذات مذاهب مغايرة خارجية وسية واعتزالية.

كانت قوة الدولة الإدريسية إبان هذه الحقبة ترجمة للمقدرات الاقتصادية والبشرية الهائلة، الأمر الذي يبرز قبة التفسير السوسيولوجي. إذ حقق الأدارسة لأول مرة في تاريخ المغرب الأقصى دولة «المخزن» بما تعنيه من وجود

(١) راجع محمود إسماعيل - سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، ج ١، الدار البيضاء، ١٩٨٠

(٢) هوبكنز - النظم الإسلامية في المغرب، ص ٣٨، تونس ١٩٨٠

حاكم قوي يستشير مجلسا من الفقهاء والعلماء وشيوخ القبائل ويأتمر بأمره جهاز
تنفيذي إداري ومالي وقضائي وعسكري^(٣). ورغم بساطة النظم الإدارية في
عهد إدريس الأول؛ إلا أنها تطورت في عهد إدريس الثاني مفيدة من التأثيرات
الشرقية والأندلسية^(٤) بحيث كفلت إقرار هيبة الدولة داخل كافة أقاليمها

أما الطور الثاني؛ فيشمل عهود خلفاء محمد بن إدريس حتى سقوط الدولة
سنة ٣٧٥هـ. ومن سمات هذه الحقبة ضعف سلطة «المخزن» واتساع رقعة
«السيبة» أي الأقاليم التي لا تخضع لسلطة الدولة. كذا اصمحلال النظم
والرسوم نتيجة عجز العاصمة المركزية. وحسبنا أنها شهدت مزيدا من الصراع
بين أفراد الأسرة الإدريسية بعد تقسيم الدولة إلى كيانات إقطاعية بين الإخوة
والأبناء. ومحاولة كل أمير أن يوسع «مخزنه» على حساب أمراء فاس من ناحية
وعلى حساب جيرانه من ناحية أخرى.

ونجم عن ذلك سفور السخائم الإثنية والمذاهب الطائفية لتفجر الخلافات
وتندلع الصراعات ضد السلطة المركزية وضد الكيانات الإقطاعية الإدريسية
أيضا. وأدى ذلك إلى تكوين كيانات عنصرية وطائفية وتجمعات محلية وإقليمية.
الأمر الذي فت في قوة «المخزن» وفتح الباب على مصراعيه للأطماع الأجنبية
الفاطمية والأندلسية.

ونحن نرد كل هذه الظواهرات إلى إجهاض الصحوة البورجوازية التي
أفرزت طور القوة وعودة الإقطاعية - بما تعنيه من تشرذم وتجزؤ - وإحياء النعرات
الإثنية والنزعات الطائفية.

(٣) محمد حبي - حصائص المدن المغربية في عصر الدول المستقلة - رسالة ماجستير، ص ٢٩٢

(٤) معه: ٢٩٣.

وحيث أن تاريخ الإدارة خلال الحقتين كان مرتبطاً بتطورات عامة في العالم الإسلامي كله تتلخص في الصراع بين البورجوازية والإقطاع^(٥).
فلسحاول رصد الأوضاع الداخلية في الدولة الإدارية خلال تطوري الازدهار والانهيار.

(٥) . جمع محمود إسماعيل. مقالات في الفكر والتاريخ، ص ٥٨، الدار البيضاء ١٩٧٩

الفصل الأول

طور الأزدهكار (١٧٢ - ٢٢١ هـ)

يرتبط تاريخ هذه الحقبة بمعطيات صحوة بوجوارية سادت المغرب الأقصى بل العالم الإسلامي برمته حتى العقد الثالث من القرن الثاني الهجري .

ومن أبرز ملامح هذه الصحوة في دولة الإدارة؛ وضع حد لسياسة الابتزاز الاقتصادي الذي تعرضت له البلاد على يد عمال الخلافة الشرقية، والتي أسفرت عن ردود فعل تحررية خارجية أسهمت بدورها في خراب المغرب الأقصى اقتصاديا، خاصة في الأقاليم التي لم تندرج في دولة المستقلة بنكور وشالة وسجلهاسة. تلك الأقاليم التي شهدت «فراغا سياسيا» جرى ملؤه بقيام الدولة الإدريسية سنة ١٧٢ هـ.

كان قيام دولة الإدارة - في حد ذاته - تعبيرا عن معطيات الصحوة البوجوارية في المغرب الكبير الذي ترحم هذه الصحوة إلى تأسيس دول مستقلة عن الخلافة في الشرق^(١).

وليس أدل على «تبرجز» الدولة الإدريسية اقتصاديا من ذبوع الملكية المرديّة خصوصا في المدن وأرباضها وضواحيها. ولدينا في هذا الصدد نصوص حد

(١) نعه : ٥٩

هامة. منها إشارة ابن أبي زرع^(٢) إلى شراء فاطمة الفهرية موضع جامع القرويين من بعض الخواص. ومنها شراء إدريس الثاني موضع رمض القرويين بفاس من بعض قبائل الربير الضاربة في الإقليم. كذا إعلان إدريس الثاني أن «من أصلح أرضاً وغرسها فهي له»^(٣). كما لدينا من القرائن ما يثبت انسحاب ظاهرة الملكية الفردية خارج فاس؛ وخاصة في الأراضي المحاورة لوديان الأنهار كحوض سبو على سبيل المثال^(٤).

وإذا كانت الملكية الجماعية تسود مضارب القبائل^(٥)؛ إلا أنها لم تكن بمنأى عن نفوذ «المخزن» الذي سمح بتوحيدها نظير ما يدفعه أصحابها من خراج للدولة^(٦). وحسبنا أن المخزن كان مناطاً بأمور السقاية والصيانة وغيرها من المرافق^(٧).

ومعلوم أن ذبوع الملكية المردية سمة هامة من سمات نمط الإنتاج البورجوازي؛ وهو أمر أكدته أحد الباحثين^(٨) الثقافة فيما يتعلق بدولة الإدارة.

كما أن شيوع ظاهرة «المؤاحرة»^(٩) قرينة أخرى على سيادة هذا النمط الذي يدل عليه تعاظم الإنتاج الزراعي لا للاستهلاك فقط بل للسوق أيضاً. ومن مظاهر هذا التعظم - الذي أفاد من خبرات العاصر الشرقية والأندلسية الوافدة -

(٢) الفرطاس: ٥٤

(٣) نفس: ٣٩

(٤) محمد حبيبي: المرجع السابق: ٢٩٩.

(٥) ابن خلدون: ١٠٠.

(٦) نفس: ٨٨، ٩٠.

(٧) محمد حبيبي: ٢٩٨.

(٨) انظر: يحيى الحناي: العرب الإسلامي، ص ١٧٣، تونس ١٩٧٨.

(٩) هوتكر: ٧٧.

رحص الأسعار^(١١) التي أمدنا ابن أبي زرع بمعلومات ضافية عنها سنشتها في موضعها كما أمدنا بمعلومات مماثلة عن زراعة محاصيل خاصة للتصدير كالقطن واليلح حيث كانت الأرض تسقى بالري الصناعي ومعلوم دور المرس في هذا الصدد في سائر دول الغرب الإسلامي^(١٢).

وبالمثل شهد قطاع الرعي تطورا هاما. وحسبنا أن مراعي المغرب الأقصى التي تهدتها أخطار سياسة عمال بني أمية الدين كانوا يقررون بطون الأعمى بحثا عن الجرة الذهبية؛ أصبحت قادرة على الإنتاج الحيواني الوفير. ليس أدل على ذلك مما روي عن أسواق أغنام التي كان يبيع بها مائة ثور وألف شاة كل أسبوع^(١٣). ناهيك عن وفرة الألبان ومنتجاتها في سائر أقاليم المغرب الأقصى^(١٤).

ونجم عن الازدهار الزراعي والرعوي ظاهرة اجتماعية جد هامة هي استقرار الكثير من القبائل البدوية مودعة حياة الظعن والانتجاع^(١٥) خاصة بعد أن اتبع الإدارة الأوائل سياسة جبائية عادلة حسب الشريعة^(١٦).

وازدهرت الصناعة كذلك في ظل الإدارة الأوائل بفضل استغلال المنجم التي احتكر المخزن بعضها - كمناجم الفضة - وأوكل معظمها - كمناجم النحاس - إلى الأفراد والجماعات لاستغلالها مقابل ركاز يقدر بخمس الإنتاج حسب الشريعة

(١١) لبكري: ١٦٠

(١٢) ابن حوقل: ٩٦

(١٣) البكري: ١٠٠

(١٤) ص: ١٥٣

(١٥) عبدالكريم بيصين: ٥٩

(١٦) محمد حناني، ٤٠٨

أيضا. وأدت هجرة الكثيرين من حرق الشرق والأندلس إلى دولة الأدارسة إلى تحسين وسائل الإنتاج^(١٦).

وهذا يفسر وفرة وجودة المصنوعات سواء للاستهلاك أو للتصدير. ومن أهم السلع المصدرة - وخاصة إلى بلاد السودان - الجلود التي اشتهرت بها فاس وأغنام والأدوات الخشبية التي أنتجتها بلاد الريف^(١٧). وكانت الأندلس تستورد الأخشاب من بلاد المغرب الأقصى دون تصنيع لاستخدامها في بناء السفن^(١٨). وليس أدل على ازدهار الصاعات والحرف من ديوخ ظاهرة التخصص وظهور «الأصناف» في المدن الهامة كفاس^(١٩).

بديهي أن تروج التجارة الداخلية والخارجية نتيجة للازدهار الزراعي والرعوي والصناعي. فصلا عن إقرار الأمن وصيانة الطرق^(٢٠)، الأمر الذي شجع حركة التجارة الداخلية في الأسواق الموسمية والدائمة وحقق وحدة اقتصادية متكاملة وانصهاراً اجتماعياً متجانساً، فانحتمت الزعزعة الإقليمية والإثنية والمذهبية. كما راجت التجارة الخارجية خاصة مع بلاد السودان حيث لذهب والرقيق^(٢١). الأمر الذي قوى من قبضة المخزن نتيجة حصيلة الضرائب والمكوس. كما ازدهر النشاط الحصري والعمراني والديموكرافي؛ الأمر الذي أسهم في قوة الدولة الإدريسية.

(١٦) عبد الكريم يصعب: ٥٩.

(١٧) البكري: ٩٠.

(١٨) عبد الكريم يصعب: ٥٧.

(١٩) الحبيب الحبحاني: المغرب الإسلامي: ٣٠٣.

(٢٠) عن الطرق الداخلة؛ راجع السكري: ٨٨ وما بعدها.

(٢١) بومار: لمذهب الإسلامي مد العرون الثامن حتى القرن الحادي عشر الميلادي، فصل من كتاب بحوث في التاريخ الاقتصادي، ص ٥١ وما بعدها، القاهرة ١٩٦١.

فحاول رصد وتحليل أحداث طور الازدهار في توحيد الأدب في
صوء هذه الصحوة البورجوازية.

نديمي أن تسهر الصحوة البورجوازية سياسياً عن مزيد من سطوة وهبة
الدولة المركزية. وبرغم ضآلة المعلومات، نستطيع أن نرحح تطور نظم «المخزن»
في عهد إدريس الثاني بعد أن استنها إدريس الأول منذ مستهل عهده وقد أشرب
سلفاً إلى إقرار وترسيخ تقاليد البلاط ورسوم الوزارة والإدارة ونظم القضاء
والجباية والجيش^(٢٢). كما أشرباً إلى هبة العاصمة فاس باعتبارها مقر الحكم
ومناط السلطان. ومنها كان الإدارة ينفذون ولائهم وعمالهم إلى سائر الأقاليم
ينفذون مشيئة الأئمة ويضبطون الثغور ويحمون الحدود والتحوم.

ومن القرنين الدالة على هبة «المخزن»، سريان عملة الإدارة في سائر
ربوع دولتهم^(٢٣)، وحلول المقابضة محل المقايضة.

لذلك لم يقع ما من شأنه تعكير صفو السياسة العامة للمخزن، فبرغم
اعتماده على قبيلة أوربة كعصبية مؤسسة؛ لم يأل جهداً في إيلاف كافة القبائل
ولإثنيات. وحسبنا إجماع سائر البربر - كرواغة وزواوة ولماية وسدراته وزناتة
وغياتة ونفزة ومكناسة وغماره - على مبايعة الإدارة الأوائل «لتقيام بأمرهم
وصلاتهم وغزوهم وأحكامهم»^(٢٤).

وقد شجع هذا الاستقرار السياسي على وفود عناصر جديدة من بربر
وعرب الأندلس وعرب وفرس إفريقية والمشرق للإقامة في كنف لدولة

(٢٢) هريك: ٤٨، ٨٦٩

(٢٣) راجع: Eastache Op. Cit. p.p. 25, 27.

(٢٤) س أبي زرع: ٢٧

إدريسيه. وبرغم الاختلافات المذهبية بين هذه العناصر؛ دانت بالطاعة والولاء. وبالمثل لم يظهر الأدارسة الأوائل تشييعهم الزيدي على حساب لمذاهب الأخرى السنية والخارجية والاعتزالية.

ومن سمات قوة الدولة في تلك الحقبة استمرارها بعد اغتيال إدريس الأول. إذ آل الحكم إلى المولى راشد دوغما معارضة تذكر. وظل راشد وصياً على إدريس الثاني حتى اغتياله دوغما معارضة أيضاً. ثم آلت الوصاية على إدريس الثاني إلى عربي يدعى أبي خالد بن إلياس العدي حتى شب إدريس الثاني عن الطوق وبأشر الحكم نفسه دون معارضة من قبائل البربر. بل إن سائر القبائل أجمعت على بيعته سنة ١٨٨هـ. كما أوضحنا سلفاً. «فقويت جنوده وأشياعه وكثرت حيوشه وأتباعه»^(٢٥).

واصل إدريس الثاني سياسة أبيه في تقوية قبضة «المخزن» في الداخل والتوسع في الخارج؛ مؤزراً بقوة البربر أولاً ثم العناصر العربية الموافدة من إفريقية والأندلس بعد ذلك. ونحن لا نرى رأي القائلين بترحيب إدريس الثاني بهذه العناصر «بغربته في بلاد البربر» بقدر ما نؤكد حرصه على الإفادة منها في جهاز الحكم وأمور العمران.

وبرغم اعتماد إدريس الثاني على العرب الوافدين^(٢٦)، وبرغم ما سببه ذلك من إثارة حفيظة البربر، استطاع أن يوازن بين القبائل فاستمال زناتة ضد أوربة بعد أن تمكن من رأب الصدع داخل القبائل الزناتية نفسها^(٢٧). كما فتح الباب

(٢٥) مـصـه : ٢٨.

(٢٦) مـصـه : ٢٩.

(٢٧) مـصـه : ٣١.

على مصراعيه لكافة العناصر الأخرى من قرص وعرب ليأمن عائلة ربانة إذا ما أزمعت العصيان. وبالمثل أفاد من جهود اليهود والنصارى في المجال المالي والعمراني^(٢٨)

هكذا نصح إدريس الثاني بفضل دهائه السياسي أن يلعب لعبة الموازنة بقتدار مكرساً جهود كافة القوى الداخلية لتأكيد هبة المخزن. وقد تجي ذلك فيما وصلت إليه مدينة فاس من بهاء وازدهار في عهده حتى غدت قبلة للمشاركة والمغاربة والأندلسيين^(٢٩).

على أن اهتمام إدريس الثاني بحاصرته الجديدة بعد الانتقال إليها آثار سخط أوربة التي راعها إنتقال العاصمة من ويلي. لم يكن هذا الانتقال لأن «ولبي ضاقت بأهلها» كما ذكر ابن الخطيب^(٣٠). بل لرغبته في التحرر من نفوذ أوربة وذلك بمغادرة مضاربها. وبالمثل نرى أن سخط أوربة لا يرجع إلى أسباب عنصرية كامنة في استعانة إدريس الثاني بالعرب بقدر ما يرجع إلى تخي إدريس الثاني - لأسباب سياسية - عن سياسة العدل والمساواة التي حرص والده على إقرارها. يفهم ذلك من نص لابن أبي زرع^(٣١) يفسر سخط أوربة «بإغداق إدريس الثاني على العرب؛ وتقريبهم ورفع منازلهم وجعلهم بطانته دون البربر». وفي ذلك ما يؤكد أهمية الدوافع الاقتصادية وإن اتخذت لبوساً عنصرياً.

ولما كانت أوربة عاجزة عن مناجزة إدريس علانية؛ عبرت عن سخطها عن طريق المؤامرات والمكائد. وتمثل كيدها في محاولة الخوول دون عمران فاس

(٢٨) مـ: ٣٧

(٢٩) مـ: ٣٩

(٣٠) أحوال الأعلام: ٣: ١٩٨

(٣١) لمرطاس: ٣٠

فكانت «تهدم ليلاً ما كان يبنى بالنهار وحمل ما حوله من حيام العرب»^(٣٢). وهذا يفسر حرص إدريس على البدء بتشييد سور المدينة ليتجنب مكائد أوربة في تعويق حركة البناء.

ومن أحل ذلك أيضاً درج على اتباع «سياسة الموازنة» التي أجادها؛ إذ استغل العداء بين صنهاجة ولواتة ومصمودة وبين أوربة^(٣٣) فاعتمد عليهم في وضع حد لمكائدها حتى تمكن من إتمام بناء فاس. وليس أدل على خشية إدريس من البربر من إقامته وجهازه الإداري بعدوة الأندلسيين، بينما أوطن مواليه وحشمه في عدوة القرويين «لموازنة» قوة البربر الساكنين بها^(٣٤).

وبرغم هذه الإجراءات؛ لم تكف أوربة عن التآمر، حتى أن إدريس الثاني بدد بها في إحدى خطبه بعد بناء فاس حيث دعى الله أن «يغمد عن سكاها سيف الفتنة والشقاق والنفاق»^(٣٥).

لكن أوربة واصلت مكائدها؛ ومن ثم تفجر الصراع بينها وبين إدريس الثاني. والمصدر تلوذ بالصمت عن ماحريات ووقائع هذا الصراع. ونرى أن حدوث السخط الأوربي على المخزن الإدريسي تمتد إلى عهد إدريس الأول. فبرغم دورها في إقامة الدولة كعصية مؤسسة لم تتحقق طموحاتها في مكانة متفوقة. ويعلم أن إدريس الأول رغم تعيينه وزراء من أوربة؛ حاول فل شوكتها بالاعتماد على زبانية. وفسد السياسة حول عليها إدريس الثاني - كما ذكرنا سلفاً - مما زادها ترمياً وسخطاً خاصة بعد أن أسفر إدريس عن تشييعه الريدي واضعاً بذلك حداً للوفاق الزيدي - الاعتزالي.

(٣٢) ص ٤٦

(٣٣) ص ٤٣

(٣٤) ص ٤٦

(٣٥) ص ٤٩

وإد فشلت أوربة في الحؤول دون عمران فاس وانتقال إدريس الثاني إليها مستعياً بالعرب وقبائل البربر المعادية؛ لم تجد مناصاً من التآمر مع الأغلبة خاصة وأب الأحرار ذوي باع طويل في تدبير المكائد ضد الأدارسة. وساعد على ذلك ما جرى في دولة الأغالبة على عهد زيادة الله بن الأغلب من جعل الاعتراف مذهباً رسمياً في إفريقية^(٣٦).

لذلك لم يجد إدريس الثاني بدأ من وضع حد لمؤامرات أوربة؛ إذ باعته باغتيال زعيمها إسحق بن عبد الحميد؛ فاضطرت للرضوخ صاغرة.

على أن تأمر أوربة شجع قبيلة مطغرة الصفرية على اتباع ذات الأسلوب. فبرغم استمالة إدريس الثاني زعيمها بهلول بن عبد الواحد واتخاذ وزيراً؛ قلبت له ظهر المجن. ويرجع ذلك كذلك إلى سياسة المحاباة التي اتبعها إدريس الثاني بتقريب العناصر العربية والتخلي عن سياسة العدل والمساواة إلى سياسة «الموازنات» العنصرية والحيل السياسية، فضلاً عن إظهار تشييعه وإقدامه على التكنيل بالخوارج الصفرية.

لذلك عقدت مطغرة العزم على الثورة متواطئة في ذلك مع دولة بني مدرار. لكن انشغال المدراريين بمشكلاتهم الداخلية^(٣٧)، جعلها تولي وجهها شطر الأغالبة. ويبدو أن إدريس الثاني كشف عن المراسلات المتبادلة بين الطرفين في هذا الصدد. لذلك أثنى في مطغرة قتلاً وسياً، فاضطر زعيمها إلى اللجوء بمن معه إلى إفريقية الأغلبية.

إن اتحاد حركات المعارضة ضد إدريس الثاني صورة التآمر والتخابر مع قوى خارجية دليل واضح على ضعفها وهزالها. وبم نجاح إدريس في القضاء

(٣٦) راجع: الفصل الخامس بالعلاقات الإدريسية - الأغلبية.

(٣٧) راجع: محمود إسماعيل: الخوارج، ص ١٢٥ وما بعدها.

على المتآمرين والتسكيل بقبائلهم عن قوة الدولة وقدرتها على مواجهة الانتزاعات الإثنية والطائفية.

على أن تفاقم هذه الأخطار دفع إدريس الثاني إلى تعميق سياسة «التوازن القبلي»؛ وذلك بإثارة السخائم العنصرية بين البربر والإفاداة من نشوبها في تأكيد هيبة المخزن في هذا الإطار يمكن تفسير ما أقدم عليه من «زواج سياسي» حين اختار زوجته التي أنجب منها ابنه محمد^(٣٨) من قبيلة نفزة. وقد نجحت هذه السياسة في وضع حد للمؤامرات داخل دولة الأدارسة حتى وفاة إدريس الثاني سنة ٢١٣هـ.

ويبدو أن المعارضة البربرية انتهزت فرصة وفاة إدريس الثاني وعادت للمصور. لذلك عول محمد بن إدريس على اتباع سياسة جديدة تضمن وضع حد للقوى المناوئة من البربر والعرب على السواء. وتكمن هذه السياسة في إسناده حكم الولايات إلى إخوانه تذكر المصادر^(٣٩) أن جدته كثرزة هي التي أشارت عليه بذلك. وأياما كان الأمر فقد أخطأ الدارسون الذين رأوا في اتباع هذه السياسة «تقسيمًا» للدولة الإدريسية. والصواب - فيما نرى - أنها محاولة لإقرار نظام لامركزي بعد أن أثبتت المركزية في عهدي والده وجده استحالة السيطرة على أقاليم شاسعة تسودها السى القبلية. لقد استهدفت السياسة الجديدة على حد قول باحث ثقة^(٤٠) «تقوية الأسرة الإدريسية بأن تكون الولايات والقيادات العسكرية بين أيدي أفرادها» وهو أمر كفيل بتحقيق عايتين؛ الأولى: وضع حد

(٣٨) ابن أبي زرع: ٥١

(٣٩) ابن الأثير: الخلفاء السيرة، ج ١، ص ١٣١، القاهرة ١٩٦٣، ابن أبي زرع: ٥١، س جلدون ٤٠٤

(٤٠) انظر سعد رغلول عبد الحميد: المرجع السابق، ص ٤٤٤

لصراع العصابات حول المناصب القيادية في الدولة الإدريسية. والثنية إحكام الهيمنة على مضارب القبائل بعد تطاول بعضها وانتزائها على المحزون

لذلك جرى تعيين إخوة محمد بن إدريس على الولايات على النحو التالي. تولى القاسم بن إدريس طنجة وسبتة وحمير النسر وتطاون وبلاد مصمودة وما والى ذلك من القبائل. وتولى داود بن إدريس بلاد هواره وتسول ومكناسة وحيال عياثة وتارا. أما عيسى بن إدريس فقد نيط بولاية شالة وسلا وأرمور وتامسنا وما والى ذلك من القبائل. وتولى يحيى بن إدريس مدينة البصرة وأصيلا والعرائش إلى بلاد ورغة. أما عمر بن إدريس فقد عين واليا على تيجساس وتدغة وبلاد صنهاجة وغمارة وما والها. وتولى أحمد بن إدريس مدينة مكناسة وبلاد فارز ومدينة تادلة. أما عبدالله بن إدريس فقد نيط بولاية أغمات ونفيس وبلاد المصامدة والسوس. وأخيرا تولى حمزة بن إدريس تلمسان وأعمالها. وأقام محمد بن إدريس في فاس حاضرة^(٤١) الدولة.

لم تكن تلك السياسة الجديدة سوى إقرار تنظيم إداري جديد بعد أن اتسعت الدولة بعد فتوحات إدريس الثاني لتضم أقاليم جديدة كبلاد تامسنا التي انتزعت من بورعواطة وبلاد تلمسان التي استردت من آل سليمان. وهذا يعني أن هذه الولايات جميعا رغم تمتع ولائها بصلاحيات إدارية وعسكرية؛ كانت تتبع الحكم المركزي بفاس. وقد كفل هذا التنظيم الإداري الجديد هيمنة فاس على مضارب القبائل ومد نفوذ المحزون إلى الوادي. وهذا ما يعنيه نص ابن أبي زرع الذي يردف المدن والأقاليم التي تولاها كل والٍ من الأسرة الإدريسية بعبارة «وما والها من القبائل».

(٤١) من أبي زرع: ٥١

وبالفعل استقامت أمور الدولة في عهد محمد بن إدريس؛ فكف البرر عن التطاول والانتزاء؛ في ذات الوقت الذي كهل فيه النظيم الحديد ولاء أفراد الأسرة الإدريسية لأخيههم الأكبر محمد بن إدريس بفاس وقد فطن ابن أبي زرع^(٤٢) إلى مزايا الحكم الجديد بقوله: «فأقاموا على بلاد المغرب وضبطوا ثغورهم وحكموا بلادهم وأمنوا سبلهم».

وبرغم نجاح هذه السياسة في ضغط العصبيات المحتملة داخل الدولة وإحيلولة دون تمرد لها وتطاولها على المخزن؛ إلا أنها فجرت حطرا جديدا تمثل في الصراع بين أفراد الأسرة الإدريسية. وإذا نجح محمد بن إدريس في وإد هذا الخطر إبان حكمه؛ فإنه تفاقم في عهود خلفائه ليسهم - ضمن أخطار أخرى - في انهيار دولة لإدارة كما سنلاحظ في المبحث التالي.

بدأت ظاهرة الصراع بين آل إدريس بخروج عيسى بن إدريس على أخيه محمد بفاس معلنا استقلاله التام بولايته^(٤٣). ولم يجد محمد بن إدريس مناصا من تكليف أخيه القاسم بطهجة ليكفيه مؤنة قتاله. فلما رفض أوكل المهمة لأخيه عمر صاحب تيجساس وبلاد غماره. وتمكن الأخير استنادا إلى عسكر من غماره وأوربه وصنجة فصلا عن جيش من زناته أنقله محمد بن إدريس؛ من قمع الانتزاء. وكافاه أخوه محمد على ذلك بأن ضم إليه ولاية أخيه الغنية بمقدراتها الاقتصادية الزراعية والتجارية^(٤٤).

وبديهي أن يشرع محمد بن إدريس في تأديب أخيه القاسم الذي رفض الانصياع لأمره في قمع التمرد. وأسند المهمة كذلك لأخيه عمر الذي تمكن من

(٤٢) نفس المصدر والصفحة.

(٤٣) مع. ٥٣.

(٤٤) ابن الأثير. ١ : ١٣٢.

هريمته وضم بلاده إلى ولايته.

هكذا عرت هذه الحركة عن حقيقتين هامتين: الأولى ما ترتب على سياسة اللامركزية من استشراء داء الصراع داخل الأسرة الإدريسية. ولثانية قوة الدولة على عهد الأمير محمد بن إدريس الذي استطاع عن طريق القوة والسياسة مد سلطانه على سائر أقاليم الدولة الإدريسية.

دليلاً على ذلك استمرار هيمنة فاس على سائر ربوع دولة الإدارة على عهد علي بن محمد بن إدريس الذي خلف أباه بعد موته سنة ٢٢١هـ^(٤٥). يهم ذلك من قول ابن أبي زرع أنه «قمع الأعداء وضبط البلاد والثغور»^(٤٦).

كما يفهم من هذا النص أيضاً أن عوامل الضعف والانحيار بدأت تطل برأسها من جديد سواء في تفاقم ظاهرة الصراع الأسري أو في إحياء الانتزاعات العصبية والطائفية ومؤامرات «الأولياء والحاشية وصنائع الدولة»^(٤٧).

إذ بعد وفاة علي بن محمد خلفه أخوه يحيى الذي أدخل بسياسة التوازن بين العصبيات حين اعتمد على العناصر العربية الوافدة من إفريقية والأندلس^(٤٨) مثيراً بذلك سخط البربر. وانتهاز حكام الولايات الفرصة للاستقلال بأقاليمهم والصراع بين بعضهم البعض. وفي ذلك يقول ابن حيان^(٤٩): «فاختلفوا وتقاطعوا وتفرقوا أوزاعاً».

(٤٥) ابن أبي زرع: ٥٣، ابن الخطيب: ٣: ٢٠٧.

(٤٦) نفسه: ٥٤.

(٤٧) ابن حيدون: ٤: ٢٩.

(٤٨) ابن أبي زرع: ٥٣.

(٤٩) المقبر، شر شافيتا، ٢٦٢.

ويديهي أن تنتهز مورغواطة الفرصة، فتنجح في استرداد ديارها^(٥٠) الغنية
الامر الذي أضعف الدولة الإدريسية ومهد لظهور الأخطار الخارجية الماطمية
والأندلسية.

لقد انتكست الصحو البورجوازية التي تفسر عصر القوة والازدهار في
تاريخ الإدارة وعادت الإقطاعية لتقود هذا التاريخ إلى الصعف والانهيار. وهو
ما سنعالجه في المبحث التالي.

(٥٠) محمود إسماعيل: مقالات، ص ٥٨

الفصل الثاني

طور الانهيار (٢٢١ - ٣٧٥هـ)

إنتهيا إلى ارتباط طور القوة والتوسع في تاريخ الدولة الإدريسية بالصحة البورحوازية. ولنحاول إثبات ارتباط طور الصعف والانهيار بسيادة النمط الإقطاعي.

من أهم الشواهد في هذا الصدد أن الإقطاعية المرتجعة ظاهرة شملت العالم الإسلامي بأسره حول منتصف القرن الثالث الهجري؛ كما أثبتنا في دراسة سابقة^(١). وبرغم صعوبة الكشف عن معطياتها في مجتمعات المغرب الوسيط - لعبية تأثير البنى القبلية^(٢) - إلا أننا نرى أن هذه المجتمعات في صيرورتها التاريخية لا تنبؤ عن حركة تاريخ الشرق الإسلامي. ولدينا من القرائن ما يرجع ذبوع وسيادة الإقطاعية في الدولة الإدريسية حول منتصف القرن الثالث الهجري.

من هذه القرائن؛ تكوين الضياع الواسعة التي حازها التجار والحشم والأولياء على حساب الأراضي الخراجية^(٣). كذا انحاح الفرق المذهبية المتمردة

(١) عن العوامل الممهدة والأسباب الموضوعية للظاهرة؛ راجع. محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، ج ٢، ص ١٠ وما بعدها، الدار البيضاء، ١٩٨١.

(٢) راجع. الحبيب المحمدي: المرجع السابق، ص ٢٠٣.

(٣) محمود إسماعيل، سوسيولوجيا: ٢ : ٢٣

صد الأدارسة في الاستقلال بممتلكاتها وزراعتها عن طريق العبيد والرقائق^(٤) هذا بالإضافة إلى ما ترتب عن الحروب بين أفراد الأسرة الإدريسية وما نجم عن الحروب القبلية والعنصرية من استيلاء المنتصر على ممتلكات المهروم، حتى على «قبول الغدة» يشكل عصب نظام الملكية آنذاك.

وقد عول الأمراء الأدارسة المظفرين على إعادة توزيع أراضي حصومهم المغلوبين على الأبناء والأخوال والأعمام^(٥) بعد أن استقلوا عن فاس تماماً، حتى غدت ديارهم أشبه «بالكور المجندة» و«المدن المحصنة» المستقلة عن بعضها البعض. وحسبنا أن هؤلاء الأمراء وشيوخ القبائل والمذاهب لم يجدوا غضاضة في ضرب العملة بأسمائهم^(٦) ولم يجدوا حرجاً في تزيمها حتى كان التجار يتعاملون بالدرهم وزناً لا عدداً^(٧). كما حرص الأمراء على حيازة الصرائب من الحلي ورؤوس الماشية^(٨)، لنفس الأسباب.

بديهي أن تسفر سيادة الإقطاعية عن تدهور الإنتاج الذي كرس آنذاك للاستهلاك المحلي؛ فالمرارح أقفرت والمراعي خربت من جراء الحروب لإقطاعية الدائمة إبان تلك الحقبة. كما تدهور الإنتاج الصناعي من جراء لصرع حول مناطق التعدين^(٩). وبالمثل تدهورت التجارة نتيجة تضائل الإنتاج الزراعي والحيواني والصناعي، فضلاً عن اضطراب الأمن ووقوع طرق التجارة ومناوذه ومدح تحت سيطرة قوى خارجية فاطمية وأموية أندلسية. فقد استولى الفاطميون

(٤) نفسه: ٣٦

(٥) مطر: Eustache: Op. Cit. P. 43.

(٦) عبد الكريم بيصعي: ٧٨

(٧) السكري: ٧٨.

(٨) نفسه: ١١٢، ابن حوقل: ١٠٠.

(٩) السكري: ٤٢.

على تلمسد أهم أسواق التجارة الواردة من الشرق. وأمويو الأندلس استولوا على سسه وأصيلا كما استردت بورعواطة سيادتها على تارودانت؛ وكلها مدن هامة ذات صلة بتجارة الشمال والجنوب ناهيك عن الشطط في فرص المكوس ولمغارم^(١٠) وتغشي الغش والتدليس بعد أن فقد المحتسب صلاحياته في الإشراف على الأسواق^(١١). ولا غرو فقد فرضت صرائب ذات صبغة إقطاعية «كالمكس» و«المعونة»^(١٢) وتعرض التجار للسطو والمصادرة^(١٣).

بديهي أن تعكس تلك الأحوال الاقتصادية المتردية آثارها على الأوضاع الاجتماعية. فقد احتلت النى الاجتماعية بعد هجرة القبائل البدوية الزناتية من المغرب الأوسط إلى الأقصى^(١٤). وتدهورت الحياة المدنية والعمراية بحيث لم تؤسس مدن جديدة إبان تلك الحقبة^(١٥)؛ باستثناء تيطاون التي حرق تخريبها لمرة تدو الأخرى.

بديهي أن يؤدي خراب العمران وغلبة الطابع البدوي والإقليمي والعسكري^(١٦). وكلها شواهد على سيادة الإقطاعية - فصلا عن الحروب الداخلية وإحارجية^(١٧) وتفاقم ظاهرة العيارين والشاطار^(١٨) إلى مرید من التدهور الاجتماعي. فقد عملت الحروب المستمرة عملها في نقص السكان. وزاد الطين

(١٠) محمد حبیب: ٣٠٨

(١١) هو بكر: ٨١

(١٢) ابن حوقل: ١٠٠

(١٣) ابن حوقل: ١٠٠

(١٤) راجع سوسي يوسف دور ربانة في المغرب الإسلامي من خروج العاطمين حتى قيام المرطين - رسالة الدكتوراه - مخطوطة، ص ١ - ص ٩٣.

(١٥) الخبيط المحباني المرجع السابق، ص ١٣

(١٦) محمود إسماعيل: سوسيولوجيا - ٢ - ٥٨

(١٧) ابن حوقل: ١٠٠

(١٨) عبد الكريم يصع: ١٠٠

بنة شح الأقوات وارتفاع الأسعار وما صاحب ذلك من مجاعات وأوبئة وقد قدم
اس أبي ررع^(١٩) سجلا وافيا عن هذه المجاعات والأوبئة التي وقعت في أعوام
٣٣٩، ٣٢٤، ٣٥٥، ٣٦١هـ. ولاحظ أن وسق القمح الذي كان يباع بثلاثة
درهم^(٢٠) إبان الحقبة الإدريسية الأولى ارتفع ثمنه إلى ثلاثة دنانير^(٢١) وأكثر إبان
الحقبة الإقطاعية.

ومن الطبيعي أن يفرز البناء الاقتصادي - الاجتماعي المتدهور أوضاعاً
سياسية متردية. إذ أسفر عن ضعف ثم انقطاع نفود المخزن وتفاقم ظاهرة
الصراع الأسري وتفشي الإقليمية والمحلية والقبلية والطائفية. هذا فضلاً عن
تفجر ثورات اجتماعية في المدن الهامة كحاس والبصرة وأصبلا وسبتة^(٢٢). وأخيراً
تفاقم ظاهرة التطرف الديني^(٢٣) والمذهبي^(٢٤). وكلها ظواهر سوف نتناولها
بالدرس. وحسبنا أن نشير إلى كونها إفرات لسيادة نمط الانتاح الإقطاعي

وهنا حق لبعض الدارسين^(٢٥) القول: «إذا كان لنصبغة القبلية والمذهبية
دور واضح في الصراع السياسي والعسكري، فإن ذلك لم يكن إلا عطاء لأسباب
أعمق اقتصادية وتجارية على الخصوص». وحق لباحث آخر^(٢٦) القول: «شهد
المغرب الأقصى خلال القرن الثالث الهجري تحولات دينية ومذهبية كبيرة.. إذ
أدى انعدام مركزية الحكم وتعدد اتجاهات السكان السياسية والعنصرية إلى أن

(١٩) الفرطاس: ١٠٠

(٢٠) نفسه: ٩٨

(٢١) نفسه: ٩٨

(٢٢) الكري: ١٠٩.

(٢٣) نفسه: ١٢٤.

(٢٤) عبد الكريم بيصين: ٩٨.

(٢٥) الخبيب الخجاني: ٢٩.

(٢٦) عبد الكريم بيصين: ١٢٠ - ١٢١

تستغل الحركات المذهبية هذه التناقضات لبث إيديولوجياتها. ولم يرد تدهور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية هذا الاتجاه إلا تعمقاً؛ الشيء الذي طمع المنطقة بطمع عدم الاستقرار ودخول المغرب الأقصى في دائرة محاولات الاستقطاب الخارجية».

ونظرة عامة على خريطة الدولة الإدريسية آنذاك تثبت ظاهرة الإقطاعية هي لا يدع للشك سبيلاً. إذ استقل بنو عيسى بفازاز الشمالي وأزفور وتادلا،^(٢٧) وبنو القاسم بأصيلا والنصرة^(٢٨)، وبنو عبدالله بنفيس وبلاد المصامدة والسوس الأقصى^(٢٩)، وبنو عمر ببلاد الريف الجنوبي^(٣٠). كما استقل بنو سليمان بنلمسان وأعمالها مستغلين التمزيق في توسيع رقعة نفوذهم وترسيخ استقلالهم.

وإلى جانب هذه الأقسام الكبرى، استقلت القبائل بمضاربها. كما وحدث تجمعات طائفية ومجتمعات إثنية استحدثت نظماً وأعرافاً بدوية وعشائرية وعسكرية كما سنوضح في موضعه.

ولنبداً بعرض القسمات المميزة لمجتمع الإدارة إبان الحقبة الإقطاعية أما عن ظاهرة التنافس والصراع بين أمراء ورؤساء الكيانات الإدريسية فنلاحظ أنها استهدفت غايتين؛ الأولى توسيع مناطق النفوذ على حساب الجيران، والثانية محاولة السيطرة على فاس لما لها من أهمية اقتصادية وروحية^(٣١).

وقد سبق رصد بواكير هذه الظاهرة في الحقبة الإدريسية الأولى فيما جرى من صراع بين عيسى بن إدريس وأخيه محمد، وأوضحنا كيف انتهى الحال

(٢٧) ابن عذري: ١ : ٢١١

(٢٨) نفسه: ٢٣٣

(٢٩) البكري: ١١٠

(٣٠) نفسه: ٧٧

(٣١) Marcas, G La Berberie Musulmane et L'Orient Paris. 1964, p. 129

بتكليف محمد بن إدريس أخاه عمر بمواجهته حتى هزمه وضم أملاكه لكن آل عيسى ما لبثوا أن استردوا نفوذهم على تادلا وقازاز وأورفور. نفهم ذلك من كتب المسكوكات التي توضح كيف كانوا يضربون السكة باسمهم حتى سنة ٢٧٠هـ (٣٢)

وثمة محاولة أخرى قام بها القاسم بن إدريس الذي استقل بالبصرة وأصيلا وطمع في إسقاط كافة الدويلات والكيانات بالمغرب الأقصى وإحياء مجد الإدارة الأوائل ولسوف نعرض لجهوده في هذا الصدد في المبحث التالي. ويكتفي الآن بالإشارة إلى فشله نتيجة تدخل أموي الأندلس الأمر الذي وضع حداً لطموحاته الوهمية.

أما دواد بن إدريس الذي استأثر بتسول وتازا وهوارة فكان أقل طموحاً؛ إذ اقتصر هدفه على ضم فاس (٣٣). وقد تمكن بالفعل من دخول حدودها الأندلسية بمساعدة بعض قبائل البربر منتهرا ضعف أمرائها الإدارة الذين كانوا عذرين عن السياسة مشغولين إما بالعبادة والسك أو العربدة والتهتك (٣٤).

هذا عن إدارة الشمال. أما إدارة الجنوب فقد انتهزوا صراعات إخوانهم في الشمال لإحكام قبضتهم على ديارهم. فضلا عن الدخول في صراعات بين بعضهم البعض من أجل الاستحواذ على مناطق الفصاة ومنفذ تجارة السودان (٣٥).

(٣٢) Eustache, OP Cit p 128

(٣٣) ابن عدي: ١ : ٢١١

(٣٤) إوردت المصادر قصة وله يحيى بن يحيى بن إدريس بالمرأة اليهودية، وذكرت كيف دخل وراعه

بحم محب في لباس امرأة لينال منها مأرباً. انظر ابن أبي ررع: ٧٧

(٣٥) عبد الكريم مصعبي: ٣٨

وفي هذا الصدد دار صراع بين عبدالله بن إدريس وبين أساء عمومته من بني عيسى وبني يحيى للسيطرة على الطريق الغربي إلى السودان^(٣٦) ودارت حروب طاحنة أضعفت كافة قوى الصراع وزادت في تعاقب طاهرة التحرئة السياسية؛ بعد أن عولوا على تقسيم أقاليمهم «دومينات» بين الأساء والأحفاد فقد أقطع القاسم بن إدريس ابنه إبراهيم البصرة، وابنه أحمد كرت، وابنه محمد ماسية. وقد أورثها الآخر ابنه الحسن المعروف بالحجام كما دخل الحجام في صراع مرير مع بني عمر للسيطرة على فارس وتمكن من دخولها بالمعل قبيل التدخل الفاطمي بالمغرب الأقصى^(٣٧).

وعلى نفس المنوال نسج إدارة نفيس وإيجلي. فقد حاز جعفر بن عبدالله بن إدريس مدينة نفيس وأورثها ابنه حمزة^(٣٨). ودخل الأخير في نزاع مع إدارة حمال درن من بني أبي القاسم إدريس بن محمد بن جعفر بن عبدالله. كما اشترك البستان في صراع محموم آخر اندلع بين أحمد الكرتي وبين ابن أخيه الحسن الحجام^(٣٩)؛ أنهك الجميع ومزق دولة الإدارة إربا.

هكذا أدت الحروب الأسرية بين آل إدريس إلى مزيد من التشرذم والتمزق الذي ازداد تفاقمًا نتيجة الحروب الإقطاعية فضلًا عن العرف الإقطاعي في تقسيم الإقطاع بين الأبناء والأحفاد.

أما الظاهرة الثانية؛ فقد ترتبت على ضعف البيت الإدريسي وفقدان هيبة «المخزن». ألا وهي ظاهرة صراع العصبية

(٣٦) ص ٣٩.

(٣٧) لكري: ١٢٦، ١٣٠.

(٣٨) ص ١٦٠.

(٣٩) ص ١٢٧.

وقد سبق أن رصدنا الخريطة الاجتماعية لدولة الأدارسة وأنت احتواءها عناصر وقمائل شتى؛ من مربر - تروبرانس - وعرب - قيسية ومجنية وأفارقة وأندلسيين فصلا عن الفرس واليهود. ولاحظنا كيف مهدت الطبيعة الجغرافية لحركات الانتزاع، وكيف فجرت حروبا بين السهل والحل، بين المرعير والبراعة. كما أوضحنا لماذا نجح الأدارسة الأوائل في مواجهة السحائم العنصرية بفضل أسلوب «الموازنة» فضلا عن أسلوب القمع والبطش، وأخير بفضل تسخير الطاقات العسكرية في حروب خارجية توسعية

لكن الحقة الإقطاعية شهدت إحياء السمرات العرقية، إذ فتح الباب على مصراعيه «لتصميم الحسابات القديمة» خصوصا بعد تهاوي سلطة «المخزن».

وليس أدل على ذلك من نجاح بعض المغامرين العرب في الاستيلاء على فاس واحتكار السلطة بها؛ كما هو حال عبد الرحمن بن أبي سهل الذي طرد يحيى بن يحيى بن محمد بن إدريس على إثر فصيحته مع عشيقته اليهودية^(٤٠). وبمثل نجح ربيع بن سليمان من عرب فاس في إعلان الثورة على يحيى بن القاسم الإدريسي وقتله سنة ٢٩٢هـ^(٤١). ولا يخفى دور العرب الأندلسيين - في سبته وأصيلا - في التواطؤ مع أموي الأندلس ضد أدارسة لريف؛ وهو ما سنعرض له في موضعة.

أما المربر؛ فقد لاحظنا دورهم في إذكاء الصراع بين بني إدريس ونجاحهم بعد التواطؤ مع بني حلدتهم في المغرب الأوسط في الكيد للأدارسة وبصيف في هذا الصدد نجاحهم أيضا في الاستيلاء على فاس. فريحاك المكاسي حكم

(٤٠) ابن أبي روع: ٧٨

(٤١) ص ٨٠

عصمه الأدارسة من قبل موسى بن أبي العافية سنة ٣٠٩هـ^(٤٢) كما عذر حامد بن حمدان الأوربي بالحسن بن محمد بن القاسم الإدريسي لصالح موسى بن أبي العافية^(٤٣) كما انتهز البربر فرصة الصراع بين عرب عدوتي فاس وتدخلوا في إذكائه انطلاقا من أحقاد عنصرية^(٤٤).

وإد عرت هذه الوقائع عن دور البربر ضد الأدارسة في فاس، فلاشك أن دورهم خارجها كان أخطر وأفذح. وقد اتخذت معارضتهم صورا وأشكالا شتى. منها القيام بحركات ذات طابع هرطقي اجتماعي؛ كحركة حاميم الممتري ببلاد غمارة التي سنعرض لها فيما بعد بالتفصيل^(٤٥).

ومنها أيضا تكوين أحلاف قبلية مناوئة للأدارسة نجحت في تكوين كيانات ذات طابع بربري قح؛ فيما عرف باسم «دول الأشباح» - أمعارن - وخاصة في أغمات ودرن. واستند الحكم في هذه الكيانات على الأعراف البدوية؛ حيث أسندت السلطة إلى مجالس قبلية يتداول شيوخ البربر رئاستها بالتناوب لمدة سنة^(٤٦) وأدى نجاح هذه النظم إلى هجرة الكثير من قبائل بربر «المسيية» في المغرب الأقصى للعيش في كنفها. وبالمثل أغرت بني جلدتها في المغرب الأوسط هربا من اضطهاد الفواطم. بل إن عناصر عربية انتهزت نجاح هذه النظم ووقعت من الخدج لتستقر في بلاد المغرب والبصرة لإذكاء الصراعات بين هذه الكيانات البربرية وبين الأدارسة^(٤٧).

(٤٢) من أبي زرع: ٨١

(٤٣) نفسه، ٨٣

(٤٤) محمد حناي: ٣١٠

(٤٥) عبدالكريم بيصمين: ٤٤

(٤٦) ابن حمدون: ٦: ٣٦٧

(٤٧) عبدالكريم بيصمين: ٨٧

وأسفرت هذه الظاهرة عن مزيد من خلخلة البناء الاجتماعي بالمغرب الأقصى فضلا عن المزيد من الاضطراب السياسي والتداعي الحصارى. ولعل في هجرة زناتة المغرب الأوسط إلى الأقصى وما ترتب عليها من نتائج وخيمة ما يغني عن اللجاج^(٤٨).

ومن مظاهر تفاقم السخائم العنصرية كذلك ما عولت عليه العاصم والعصبيات البربرية من رفض الجبايات «وكسر الخراج»؛ الأمر الذي زاد في إضعاف حكم الإدارة.

ترتب على ذلك كله إثارة الشقاق بين الحواضر والبادي. وإحياء السخائم القديمة بين العرب والبربر؛ حتى ذكر البكري^(٤٩) أن كلا من العنصرين في الموضع الواحد كان يتخذ مقابر خاصة تحرم على موت العصر الآخر. بل إن لبربر لم يتورعوا في بعض المدن - كأعمات - عن طرد سكانها من العرب^(٥٠). وتنسحب نفس المقولة على مدينتي أوزفور ووزيغة^(٥١).

هكذا شكل البربر عنصرا مناوئا لأمراء الإدارة؛ عرعه نصر لابن حيان^(٥٢) حيث ذكر على لسان أحد هؤلاء الأمراء: «إن البربر إلى اليوم على عادتهم الأولى معنا. إن همما تشديد السلطان هربوا عنا وفرّوا منا واتخذوا الحصون عينا؛ فمرة يذهب إلى محاربتهم وتارة نزول إلى مداراتهم».

أم الظاهرة الثالثة التي تفاقت أخطارها إبان الحقبة الإقطاعية؛ فهي التعصب المذهبي والتطرف الديني. وقد سبق تبيان الخريطة المذهبية والدينية

(٤٨) رجع: سوسي يوسف المرجع السابق، ص ٢٥

(٤٩) المغرب: ١١٠

(٥٠) نفس: ١٣٦

(٥١) نفس: ١٥٥

(٥٢) لفتنس، تحقيق شاليتا، ص ٢٩٢.

لدولة الأدارسة، وأوضحنا كيف كان التسامح العقيدي سمة من سمات العصر الإدريسي الأول، وكيف كان الالتئام الزيدي - الاعتزالي بمثابة إيديولوجية معتدلة ووثاق حفف من غلواء العصبية العنصرية والقبلية، ووسيلة توصل بها «المحزون» في لم شتات كافة السكان والإفادة من فعاليتهم في السواحي الاقتصادية والعمراوية، فضلا عن إذكاء الحماس الديني وتسحيه في خدمة مشروعات «المخزن» التوسعية. ودلنا على ذلك بالنقود والمسكوكات الإدريسية التي خلت من شعارات الشيعة واقتصرت على شعارات العدل^(٥٣) والتوحيد، كما أوضحنا كيف تمكن إدريس الثاني من محق بواكير الانتراء ذي الطابع المذهبي كما هو الحال بالنسبة لأوربة المعتزلية ومطغرة الصغرية. وانتهينا إلى تفسير ذلك في إطار الصحوة لئورجوازية التي عمت المغرب الأقصى حتى العقد الثالث من القرن لثاني الهجري.

أما الحقبة الإقطاعية؛ فقد شهدت مزيدا من التعصب الديني وبروز خطر الطائفية والتطرف حتى غدت المذهبية بآثارها السلبية والعصبية العنصرية والقبلية وجهين لعملة واحدة.

بدأت بواكير هذه الطاهرة في أحرقات عهد إدريس الثاني الذي عول على الانتصار للمذهب الزيدي^(٥٤) وهو أمر فخر الصراع بين أصحاب المذاهب المختلفة من زيدية واعتزالية وخارجية وأهل سنة. بل لم يدخر الأدارسة الأواخر

(٥٣) رجع: Eustache: OP. Cit. p. 288

(٥٤) هذا صورة سرهم صرف في أواخر حكم إدريس الثاني، يحمل شعارات الشيعة كالمهدوية واسم علي بن أبي طالب

إدريس - محمد رسول الله - المهدي إدريس بن إدريس - علي

نظر: Eustache: OP Cit. p.p. 199,200

وسعا في إثارة أصحاب هذه المذاهب المخيرة للذهاب الزيدي^(٥٥) وري كان إعلان الخلافة العاطمية بإفريقية والأموية بالأندلس من أسباب حرص الأدارسة الأواخر على إظهار التشيع الزيدي، تعبيرا عن حق طالما دافعوا عنه منذ دعوتهم وثورتهم الأولى في الشرق.

وما يعيننا أن حرص الأدارسة الأواخر على إظهار مذهبهم أدى إلى صراط الوحدة الإيديولوجية التي طللت عهود الأدارسة الأوائل. وننوه بأن قضية المذهبية لم تكن إلا غطاء دثر مصالح وطموحات قوى اجتماعية هاهنا، تردى إليه حال الأدارسة إبان الحقبة الإقطاعية من الضرب عرض الحائط بسياسة «لعدن والتوحيد».

وحسب أن شيوخ المالكية ورؤساء المعتزلة شكلوا إبان تلك الحقبة طبقة أرستقراطية تجارية حارت الحاء والثروة واقتنت الضياع واستأثرت بالسطان^(٥٦). وهو أمر أكدته ابن حوقل^(٥٧) - الذي زار المغرب الأقصى آنذاك - حين وصف هذه الأرستقراطية «بالغنى وسعة المال». هذا في الوقت الذي شكل فيه الخوارج الصعرية طبقة فقيرة مصطهدة كما سوضح في موضعه.

في ضوء الرؤية السوسيو-اقتصادية تلك يمكن تفسير الصراع بين أهل السنة والريادة في إيجلي والسوس الأقصى مصداق لك ما قرره ابن حوقل^(٥٨) بأن الصراع الذي كمر فيه الطرفان بعضهما البعض كان من أجل الاستحوذ على

(٥٥) يظهر ذلك في نقوش على عملة إدريسة صرت سنة ٢٤٨هـ. وهناك صورة لشعارها

«عز حمر اسامر بعد النبي، كره من كره ورحي من رحى»

نصر Eustache Op Cit p 159

(٥٦) س ابن رزق ٢٩

(٥٧) صورة الأرض ٩٠

(٥٨) نفس المصدر والصفحة

مهاجم النحاس. وأضاف باحث معاصر^(٥٩) إلى العامل الاقتصادي دافعا سياسيا حين ذهب إلى أن الملكية كانوا يطمحون إلى الانعتاق من سيطرة آل إدريس.

وإذا تمحور الصراع في الجنوب حول مهاجم النحاس؛ فقد تبلور في الشمال حول المدن التجارية والاستراتيجية والثغور الأطلسية؛ كتلمسان وسبتة وأصيلا وفي هذا الصدد لعب الملكية دورا كبيرا في تعصيد ومؤازرة أموي الأندلس ضد الأدرسة؛ كما ستوضح في موضعه.

وفيما يتعلق بالصراع الريدي - المعتزلي؛ نعلم أن الوفاق المذهبي والسياسي بين الطرفين انفرط وانفض منذ قتل إدريس الثاني إسحق الأوربي. وبرغم انصياع أوربة لمحمد بن إدريس؛ فإنها ما لبثت أن سحطت على أخلافه وقد تمثل هذا السخط في إدكاء حركات الانتزاع ذات الطابع العنصري من ناحية وفي تكوين تجمعات اعتزالية مستقلة من ناحية أخرى؛ كذلك التي ترأسها معزوز بن طالوت ومكارم بن درقم وأبو حفص الزناتي. وليس أدل على استقلال هؤلاء من صرب السكة بأسمائهم^(٦٠).

وليس أدل على ضالة المذهبية بالقياس إلى الأسباب السياسية والاقتصادية من تشجيع هذه الكيانات بورغواطة الصغرية للتوسع على حساب الأدرسة، فضلا عن تعاونهما معا في مراقبة طرق التجارة إلى السودان^(٦١). ولعل في صطحات يونس البورغواطي زيد بن سنان المعتزلي في رحلته إلى الشرق ما يشير إلى هذا الوثام.

(٥٩) انظر: عبد الكريم بيهيمي: ١١٧.

(٦٠) انظر: Eustache: Op. Cit p.p 308, 313.

(٦١) عبد الكريم بيهيمي: ١١٢.

أما عن موقف الخوارج الصفرية إزاء الإدارة الأواحر؛ فقد اتسم بالعنف الثوري. وقد سقت الإشارة إلى أسباب الصراع بين الخصمين وأوصحا أنها كانت اقتصادية سياسية بالأساس، ونضيف إلى ما سبق تطرف الصفرية في مسألة العدل الاجتماعي واستشادهم في قتالهم من أجل إقرارها^(٦٢). وإذا أصيف إلى ذلك ما بلغته دولتا بورغواطة وبنى مدرار من قوة وشأو آنذاك - حتى أن بورغواطة توسعت على حساب الإدارة، وبنى مدرار جهزوا حملة لغروهم - أدرك لماذا شكل الخوارج الصفرية بدولة الإدارة خطرا فادحا عليها. إذ من المؤكد توطؤهم مع بني مذهبهم في شالة وسجلاسة ضد الإدارة.

تشهد على ذلك ثورة عبد الرزاق الصمري الذي تمكن من قيادة قبيلة مديونة وغيرها من قبائل الربر وسجح في اقتحام فاس والسيطرة على عدوة الأندلس^(٦٣). وبرغم فشل الثورة^(٦٤)؛ ما انفك الخوارج الصفرية يثيرون المتاعب في وجه الإدارة حتى انقضاء دولتهم^(٦٥).

ومن الحركات الاحتجاجية تلك التي ترعماها حاميم المفتري حيث ادلعت من تيطاون وأزرتها قبائل عمارة وصنهاجة^(٦٦) ضد إدارة الريف. وقد تجبى صابعهم امرطقي في الدعوة للتخفيف من العبادات كالصلاة والصوم وحذف لطهارة ولوصوء والحج، والتأثر بالعقائد القديمة في الإقليم كاعتماد لكهانة والسحر ولدعوة إلى الإباحية^(٦٧) أما الجانب الاجتماعي فيمكن الكشف عنه من خلال

(٦٢) محمود إسماعيل. مغربيات، ص ٥٢

(٦٣) عن مصيلاات وقائع وأحداث انثوره؛ راجع: محمود إسماعيل. الخوارج، ص ١٣٧، ١٣٨

(٦٤) بن أبي ررع، ٧٨، ٧٩

(٦٥) سكري: ١٢٥ Marcas, G Op Cit p 126

(٦٦) لكري: ١٠٠

(٦٧) معه: ١٠١، عبدالكريم يصعب ١٠٧

معارفنا عن الحركات الثورية في العالم الإسلامي الوسيط. تلك التي كانت تربط بين الكهانة والإباحية كتعبير عن الصائقات الاقتصادية.

هكذا أسفرت دراسة سياسة الإدارة الداخلية عن حقتين متميزتين، الأولى تمثل طور القوة والتوسع والازدهار كانعكاس للصحة البورجوازية، والثانية تمثل طور الضعف والانحيار نتيجة سيادة الإقطاعية.

ولسوف ينعكس تأثير الصحة وانعكاساتها كذلك على سياسة الإدارة الخارجية، وهو ما سنبحثه في المبحث التالي.

الباب الثالث
خلق الله الإنسان الخارجه

تفردت علاقات الإدارة الخارجية بخاصية لا تحد لها نظيراً في سياسات دول المغرب الخارجية في العصور الوسطى. ذلك أنها صيغت على أساس العداء لكافة دول المغرب المعاصرة كبورغواطة وني مدرار وبي رستم والأغالبه فصلاً عن الخلافة العباسية وأموي الأندلس. وظل هذا العداء قائماً حتى نهاية القرن الثالث الهجري حيث سقطت كافة دول المغرب المستقلة وتفرقت دولة الإدارة في حجر النسر شمالي المغرب الأقصى. وحين دخل المغرب الكبير حقبة جديدة على إثر قيام الخلافة الفاطمية؛ شهد المغرب الأقصى صراعاً محموماً بين الفاطميين وأموي الأندلس وقف الإدارة إزاءه موقفاً يتراوح بين العداء والود إزاء الخصمين حسب مقتضيات الحال.

والحق أن تعليل سياسة الإدارة الخارجية العدوانية بشكل لغز استعصى تفسيره على المؤرخين المحدثين. ذلك أنهم تأثروا في ذلك برؤى القدامى التي تؤكد على البيولوجية والمذهبية والعصبية القبلية والعنصرية في تفسير تاريخ المغرب الوسيط بوجه عام وتاريخ الإدارة على نحو خاص. على أساس أن الإدارة كانوا عرباً شيعة يحكمون قبائل من البربر على مذاهب شتى سنية واعتزالية وخارجية. كما تأثر المؤرخون المحدثون أيضاً بالتفسيرات الخاطئة لمقولات ابن خلدون عن الدعوة المذهبية والعصبية كشرطين هامين لقيام الدول، وعاملين أساسيين في صياغة تطورها التاريخي فضلاً عن إهيارها وسقوطها.

ولن نقف طويلاً عند رؤى المؤرخين القدامى البيولوجية والإثنية أكثر من لتسببه إلى أهم نظروا إلى «الطاهرات» باعتبارها دوافع وأسباباً، واعتبروا النتائج

عللا وعوامل محرقة.

أما عن التأويل الخاطيء للمقولات الخلدونية التي جعلت من هذا المؤرخ العظيم «شعوبيا» و«طائفيا»، فلا أقل من تقديم إيضاحات تثبت أن الحوافر المادية تكمن وراء المذهبية والعصية. فالدعوة المذهبية في نظر ابن خلدون مجرد وسيلة إيديولوجية تفيد في لم شمل العصية وتوجيهها نحو هدفها البعيد وهو إقامة الدولة، أي الانتقال من مرحلة التوحش والبداءة إلى مرحلة العمران والتحضّر.

أمّ العصية: فهي لا تعني عند ابن خلدون رابطة الدم بقدر ما تعني من قوة مادية وبشرية. إن إلتئام شمل العصية لا يتم إلا عن طريق «الغلبة» والصراع الذي يستهدف في النهاية وتحقيق الخيرات الدنيوية والشهوات البدنية والملاذ النفسانية^(١). لذلك لم نخطيء حين ذهبنا إلى أن فكر ابن خلدون لتاريخي ينحصر نحو ماديا^(٢). ولم يخطيء أحد تلامذتنا^(٣) حين رأى أن نظرية ابن خلدون في العصية والدعوة المذهبية «تجمع بين الجغرافيا والديموغرافيا والقدرة على التوسع والصراع». ولم يخطيء ابن خلدون^(٤) نفسه حين استشف ما يمكن أن يحدث من خطأ تأويل آرائه في هذا الصدد حين قال: «وهذه الآراء بعيدة عن أفهام الجمهور بالحيلة لأنهم نسوا عن تمهيد الدولة منذ أولها».

والعودة إلى ابتداء قيام الدولة الإدارية - تطبيقا للمنهج الخلدوني - نجد أنها اعتمدت على إيديولوجية زيدية - اعتزالية، وعلى عصية من الربر تتمثل في قبيلة أوربة لتحقيق عاية سياسية وهي إقامة دولة نواة في المغرب الأقصى تكون مصطلقا لتكوين خلافة علوية تضم العالم الإسلامي بأسره. وبدهي أن تحقيق هذا

(١) المقدمة ١٥٤

(٢) رجع، عمود إسماعل فكرة التارخ بين الإسلام والماركسية، بيروت ١٩٨٨

(٣) نظر عبدالكريم بيصم - المرحع السابق، ص ٢٣٢

(٤) المقدمة ١٥٤

«المشروع السياسي الطموح» لا يمكن أن يتم إلا على أنقاض كافة القوى الإسلامية المعاصرة للأدارة في الشرق والعرب الإسلاميين سواء سواء وديهي أيضا أن يصاب الأدارة كافة هذه القوى العداء بكافة صوره وأشكده كما يوضح في موضعه.

وهذا التفسير لا يحول دون اهتماما بالعصية والمذهبية بصدد لتاريخ لعلاقات الأدارة الخارجية. لكن هذا الاهتمام يتعلق بالأحداث والوقائع لا بالتأويل والتفسير. ذلك أننا نعول في هذا الصدد على الرؤية الحدودية وليس على «المحيال» الشعبي والبيولوجي المتواتر.

إن دراسة السياسة الخارجية لدولة ما تعني في النهاية «التعامل مع كيانات سياسية تجاوزت مرحلة البداوة إلى طور الحضارة». ومن ثم تصح الوقائع والأحداث. وإن اتخذت لوسا دينيا مذهبيا أو عصبيا أو قبليا. معبرة عن سياسات تتبنى أهدافا «استراتيجية» اقتصادية واجتماعية. ويتطلب تحقيق هذه الأهداف صراعا عسكريا ودبلوماسيا وسياسيا ودعائيا لا مجال في صباغته لما اصطلح عليه - خطأ - بالعوامل الإثنية والمذهبية التي لا تعدو أن تكون «طاهرات» للصراع ونتائج مترتبة عليه؛ لا أسباب ودوافع وحوافز له.

كما أن هذا الصراع يدور في «مجال حيوي» تلعب فيه معطيات «الحيو-بوليتيكا» ومدى قوة الدولة أو ضعفها الدور الفاعل والمؤثر. فبقدر قوة الدولة لمادية والبشرية تتحدد نتائج الصراع وآثاره.

في إطار هذه الرؤية؛ لنحاول رصد وعرض وتفسير علاقات الأدارة الخارجية سواء مع العباسيين والأغالبة أو مع الكيانات السياسية الخارجية المغربية أو مع أموي الأندلس والفاطميين.

الفصل الأول سياسة الإدارة إزاء العباسيين والأغالبية

١ - العلاقات الإدارية - العباسية :

اتسمت سياسة الإدارة إزاء العباسيين بالعداء رغم انتباهها مع لال البيت . وقد تمركز العداء حول محورين : أولهما : طموح العباسيين نحو إخصاع كافة أرجاء العالم الإسلامي وتحقيق وحدة «دار الإسلام» باعتبارهم الخلفاء الشرعيين ؛ خصوصا وأن مفهوم الخلافة - نظريا وفقهيا - لا يمكن تجزئته . وهذا يفسر عدم إقدام أمراء الدول المستقلة على تنصيب أنفسهم حلفاء في الشرق والغرب على السواء . وهو أمر انسحب على الإدارة أنفسهم رغم كون إمارتهم تدخل ضمن ما أسماه الماوردي «إمارة الاستيلاء» بحيث قطعوا صلاتهم تماما بالخلافة ؛ فلم يذكروا أسماء بني العباس لا في الخطبة ولا على السكة ، ولم يتلقوا منهم التفويض وتصلوا من دفع الأموال السنوية ، ولم يقيموا لهم وزنا في سياساتهم الداخلية والخارجية^(١) .

ولم يكن بوسع الخلافة العباسية - عمليا - مد نفوذها إلى المغرب لأقصى حصصا بعد انسلاخ المغرب الأوسط عن نفوذهم بعد قيام دولة بني رستم عام

(١) الماوردي لأحكام السطانية، ص ٢٤ وما بعدها، القاهرة ١٩٦٠

١٦٢هـ. يضاف إلى ذلك انشغال العباسيين الأوائل بالمشكلات الشرقية الداخلية، فصلا عن الأخطار الخارجية على أعالي الشام والعراق من قبل البيزنطيين^(١).

على أن انتهاء الخلافة العباسية من مواجهة هذه الأخطار حصرها إلى محاولة استرجاع نفوذها في الغرب الإسلامي بعد أن تقلص حتى لم يتعد حدود إفريقية وبرغم إنعادها عدداً من الحملات العسكرية، واتباعها سياسة المحالفات والدبلوماسية، وتطبيق لامركزية الحكم في إفريقية، لم تنجح قط في استرداد أدنى نفوذ لا في المغرب ولا الأندلس.

ويقيم دولة الإدارة عام ١٧٢هـ وتشكيلها خطراً مباشراً على إفريقية العباسية بل على مصر نفسها، عول العباسيون على الاهتمام بحريات الأحداث في بلاد المغرب والأندلس^(٢). وبديهي أن تفجر هذه السياسة صداماً مع الإدارة.

وثانيهما: أن الإدارة الذين نحسوا في تأسيس دولتهم بالمغرب الأقصى، رودتهم فكرة الانتقام لما حل بالعلويين من مجازر في الشرق على أيدي أبناء عموماتهم هذا فضلاً عن تحقيق أطماعهم في الخلافة التي اغتصبها بنو العباس برغم جهود العلويين في مواجهة بني أمية وفي تأسيس الدعوة التي أسفرت عن قيام خلافة لعباسية سنة ١٣٢هـ. وساعد على بلورة هذه الطموحات الإدارية اندلاع العديد من الثورات ضد بني العباس وانتشار التشيع حتى بين ولائهم وعماهم ناهيك عن وزرائهم من البرامكة.

في إطار هذين العاملين؛ يمكن رصد العلاقات الإدارية - العباسية التي تمتد حدودها العدائية إلى ما قبل تأسيس دولة الإدارة. ودون دخول في

(٢) ارجع Vonderheyden La Berberie Orientale Sous la dynastie des Benu-L. Arelab, Paris 1927, p 26, Marcais G L'Afrique de Nord Française dans L'histoire, Paris, 1937, p 149

التفصيلات حول هذه الجنود - التي سبق أن عرضنا^(٣) وعرض غير لها^(٤) - من المهد أن تشير إليها في عجالة باعتبارها حلقة لا سبيل إلى تجاهلها لمن يؤرخ للعلاقات الإدريسية - العباسية. هذا فضلا عن إضافة ما نرى أنه حديد بالنسبة للموضوع.

عرض الفصل الأول من الباب الأول لأسباب الخلاف الريدي العباسي. كذا لمظاهره المحتملة من مساجلات نظرية حول أحقية الخلافة؛ إلى الصدام العسكري والدعاية السياسية. ويمكن أن نضيف إلى ما سبق إعادة العلويين من تجاربهم الفاشلة في الشرق، كذا من تجارب الخوارج الناجحة في الانتقال بنشاطهم الدعائي من القلب إلى الأطراف حيث أضرموا ثورات توجت بتأسيس كيانات مستقلة عن بني العباس.

أفاد العلويون الزيدية من ذلك كله وتعاونوا مع المعتزلة في بث دعوتهم ببلاد المغرب وتطلعوا لتأسيس دولتهم بالمغرب الأقصى. وما يعيننا الآن إثبات أن العباسيين كانوا على علم ودراية بكل هذه الماكرات لذلك شوا العيون والجواسيس لدخول دون وصول إدريس بن عبد الله إلى المغرب الأقصى بعد مذبة فح. وقد أثبت الأحداث تفوق التنظيم السياسي السري الزيدي - الاعتزالي في هذا المحال من الصراع الخفي مع التنظيم العباسي، وتمكن إدريس من الوصول إلى المغرب الأقصى سالما. وفي ذلك يقول أحد الدارسين الثقات^(٥). وكانت جواسيس بني العباس تلاحق إدريس؛ حيث أبلغت الخلافة العباسية ولائها وعمالها بصفاته. وكانت نقط الحراسة المعروفة بالمسالح ترقب قدومه.

(٣) رجع: محمود إسماعيل: الأمانة: ١١٢ وما بعدها.

(٤) رجع: محمد لطفي الدولة الأعلى، ص ٣٩٨ وما بعدها، بيروت ١٩٨٥

(٥) ص ٣٩٩

وكلل هرب إدريس من الحجاز إلى مصر إلى المغرب الأقصى بتأسيس دولة لأدارسة سنة ١٧٢هـ. ولم يكن توسع العباسيين إسقاطها في مهدا نظرا لاضطرب أمور إفريقية آنذاك. فضلا عن افتقارهم إلى أسطول بوسعه حمل لجيوش من الشرق إلى المغرب الأقصى.^(٦)

ما كان توسع بني العباس الوقوف مكوفي الأيدي أمام تعاقم خطر إدريس الأول خصوصا بعد أن توسع جنوبا وسيطر على أقاليم ثرية ماديا وبشريا. فضلا عن سيطرته على أماكن استراتيجية كمصيق تارا ومدينة تلمسان وأصبح بوسعه تجنيد الجيوش وإنفاذها نحو إفريقية.

إزاء هذه التطورات التي جعلت إدريس الأول يسفر عن طموحاته السياسية شرقاً، اتخذ العباسيون عدة إجراءات للحؤول دون تحقيق أطماعه. منها إنفاذ حملة بقيادة هرثمة بن أعين إلى إفريقية لوضع حد للفوضى الضاربة فيها. كذا تشييد هرثمة عددا من الحصون والقلاع استعدادا لمواجهة الخطر لقادم من لغرب^(٧).

وأخير إسناد إقليم الراب على حدود إفريقية الغربية إلى قائد كفاء عرف ببلائه في نصرة الخلافة هو إبراهيم بن الأغلب

وليس أدل على توحس هرون الرشيد من خطر إدريس الأول من أمره إبراهيم بن الأغلب بالاتصال به مباشرة. دون الرجوع لوالي القيروان. لاخذ لتدابير الكفيلة موقف خطر إدريس، بل وحصه إياه على مباغتته بحيش الراب من استطاع إلى ذلك سبيلا^(٨).

(٦) أنساب بنو أمية، القوي الحرة والحارة في الحر المتوسط، ص ١٦٢، القاهرة ٢

(٧) الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، ص ٢٠٣

(٨) محمد الطائي، المرجع السابق، ص ١١٧

ويدو أن هذه الإجراءات أفلحت في ردع إدريس الأول؛ فكف عن تسيير
حبوشه من تلمسان إلى إفريقية برغم مكوثه بها ثلاث سنوات بعد العدة لحملة
لمزمة. ولكن الرشيد أيقن أن عدم إنفاذ الحملة لا يعني وقف المحطط
لإدريسي، لتوسعي؛ ومن ثم عول على اغتيال إدريس تخلصاً من خطره.

ولا ماص من إثبات نص لابن أبي زرع^(٩) حول هذا الموضوع رغم
تفصيلاته بطراً لما أثير من خلاف حول هذه القصيدة بغية مقارنة محتواه بالروايات
الأخرى ومناقشة آراء الدارسين المحدثين في هذا الصدد التماساً للحقيقة ما جرى.

ذكر ابن أبي زرع أن الرشيد اغتم لخطر إدريس فاستشار يحيى البرمكي
«وأخبره بأمره بعد أن قوي سلطانه وكثرت جيوشه واشتهر أمره واسمه». وأردف
قائلاً «لقد عزمت على أن أبعث له جيشاً عظيماً لقتاله. ثم إنى فكرت في بعد
البلاد وطول المسافة وتناهي المغرب عن المشرق، ولا طاقة لجيوش العراق على
الوصول إلى السوس من أرض المغرب؛ فرجعت عن ذلك. وقد هالني أمره
فأشر علي برأيك فيه». أشار عليه يحيى بأن يبعث إلى إدريس رجلاً تتوافر فيه
صفات الذكاء والمكر والدهاء مع البلاغة والجرأة ليعتاله. ثم وقع اختيار يحيى
على سليمان بن جرير المعروف بالشياخ. وأخبره بالمهمة التي نيط بتنفيذها ووعدته
برفعة المنزلة والصلوات السببية ودأعطاء أموالاً حزيلة ونخفاً مستطرفة وجهزه بما
يحتاج إليه. وأعطاه قارورة فيها غالية مسمومة ثم وحه معه رجلاً يثق به
وشجاعته. فانطلق سليمان مع صاحبه من بغداد «وهو يتظاهر بالطب»...
«وما زال يجد في السفر حتى وصل إلى ويلي واتصل بإدريس فسأله عن اسمه
ونسبه وسبب قدومه إلى المغرب فذكر له أنه من موالى أبيه وأنه اتصل به

(٩) أنبأ بعض المصادر أنماه كما ذكرها ابن أبي زرع مع التصرف فيما عداها ليستقيم ساق العرص
انظر: لفرطاس: ٢٢، ٢٣

خبره، فأنه برسم خدمته» بسبب محبة لآل البيت. «فأنس إليه إدریس وسر به واتخذ صاحبا وبديما لا يجلس إلا معه ولا يأكل إلا إذا أكل معه». وأبدى سليمان من لعلم والأدب والبلاغة والجدال ما جعل إدریس يرفعه إلى تلك المنزلة وأحد الشياخ يترصد فرصة لاغتيال إدریس حتى وافته بغيب رashed. فدخل سليمان على إدریس وجلس بين يديه على عادته وتحدث معه ميب وقال : يا سيدي قد جعلت فداك إني جئت من المشرق بقارورة طيب أنطيب بها ثم إني رأيت هذه البلاد ليس بها طيب فرأيت أن الإمام أولى بها مني؛ فخذها تطيب بها، فقد أثرتك على نفسي... ثم أخرجها ووضعها بين يديه. فشكره إدریس ثم أخذ القارورة وشمها... وتحصل مجراده منه فتمت حيلته... وخرج كانه يريد قضاء حاجته؛ فسار إلى منزله. وركب فرسا له من عتاق الخيل وسباقها كان قد أعدها لذلك وخرج من مدينة ويلي يطلب لنجاة... وكانت القارورة مسمومة، فلما انتشق إدریس الطيب صعد السم في خيشومه وانتهى إلى دماغه؛ فغشي عليه وسقط بالأرض على وجهه لا يفهم ولا يعقل ولا يعلم أحد ما به ولا ما أصابه».

باستكناه محتوى هذا النص الهام؛ نقف على عدة حقائق هي: أن لرشيد استشار وزيره يحيى البرمكي في أمر إدریس نظرا لخبرته السابقة في التعامل مع يحيى بن عبدالله - أخ إدریس - حيث تمكن باتباع أساليب الغدر من التحايل عليه حتى تخلص منه وقضى على دولته مطبرستان

أما عن اختيار يحيى سليمان بن جرير المعروف بالشياخ لاغتيال إدریس الأول، فقصية خلاف بين المؤرخين ونحن نميل إلى رواية ابن أبي ررع التي تؤكد أن الشياخ لم يكن طبيبا - كما ذهب البعض^(١١) - بل ادعى التطب كوسيلة

(١١) نظر محمد الطالبي ٤، ٣

يتذرع بها في التقرب من إدريس. كما لم يكن زيدا - كما ذهب البعض^(١١) -
 لأحر - إلى حد القول بأنه «متكلم الزيدية». بل كان رجل سياسة موالٍ لسي
 العباس ادعى أنه على مذهب إدريس لنفس السبب السابق. لقد كان الشياخ كما
 ذكر^(١٢) الرفيق من «موالي المهدي» الأمر الذي أهله لتنفيذ مهمته لصالح
 الرشيد. ولو كان زيدا حقا لما أقدم على فعلته. ولو كان «متكلم الزيدية» لعلم
 إدريس بأمره وحموه ولما سأله عن أصله ونسبه وموطنه. ونحن لا ندمع في ادعائه
 الطب، كذا ادعائه التشيع الزيدي تسهيلات لمهمته في التقرب من إدريس؛ خاصة
 وأن الكثيرين من الزيدية وفدوا إلى المغرب هربا من مطش بني العباس، كذا
 للإقامة في كنف دولة إدريس^(١٣). المعقول أن يكون الشياخ قد أعد من قبل
 يحيى البرمكي إعدادا خاصا من حيث الإحاطة بالمذاهب والفرق خاصة المذهب
 الزيدي حتى يجوز ثقة إدريس. خاصة وأنه أوتي ذلاقة اللسان وحسن البيان كما
 ذكر البكري^(١٤).

ورغم اتساق رواية ابن أبي ررع موجه عام؛ إلا أنها لا تخلو من
 مغالطات. منها عدم إثبات قدوم الشياخ على إبراهيم بن الأعلب ببلاد الزاب
 وهو المتأمر الأول مع الرشيد على اعتيال إدريس. ومنها أيضا الوصف الدقيق
 لحال إدريس عقب تسميمه في الوقت الذي يصح فيه ابن أبي ررع على أنه كان
 وحيدا بعد هرب الشياخ على إثر نجاح المهمة. كذلك لا منطقية وصف ابن أبي
 ررع لمجريات ما وقع بين المولى راشد وبين الشياخ حين لحق به راشد في

(١١) البكري : ١٢٠

(١٢) تاريخ إفريقية والمغرب، ص ٢١٥.

(١٣) منه : ٢٢

(١٤) المغرب : ١٢٠

الطريق من ويلي إلى إقرقية. يقول ابن أبي زرع^(١٥) «وشد راشد على الشياح بالسيف فقطع يده اليمنى وشحه في رأسه ثلاث شجات وجرحه في حسده». والسؤال : لماذا والحال كذلك لم يجهز راشد على الشياح، وكيف استطاع راشد الوصول إلى بغداد بحالته تلك؟.

الأمر محض مبالغات تستهدف إظهار فتوة راشد وبلائه وإحلاصه لسيده إدريس. وهي مبالغات مألوفة في كتابات ابن أبي زرع ذات الطابع المنقبي المتعاطف مع الإدارة.

ولا مناص من التوقف عند إشكالية أخرى هي كيفية اغتيال إدريس بالسم. المصادر تختلف ما بين قائل بأنه سم بقارورة طيب أو قارورة «سم»^(١٦) أو بمسوك^(١٧) مسموم أو بعلاج للأسنان أو في دلاحة مسمومة... الخ

وأيا ما كان الأمر، فالثابت أنه مات مسموما ولا يمكن أن يتخذ الاختلاف حول كيفية تجرعه السم أساسا لنفي المسألة برمتها؛ وهو ما ذهب إليه أحد الدارسين^(١٨) المتشككين في اغتيال إدريس. إذ ذهب إلى «أن أنصار إدريس نسجوا قصة موته شهيدا استدرازا لعطف الجماهير على الأسرة العلوية». بينما ذهب في موضع آخر إلى «أن العباسيين هم الذين نسجوا تلك الرواية ليحيطوا بشخص الرشيد مهالة أسطورية تجعله قادرا على التخلص من خصومه مهما بعدوا».

(١٥) الفرطاسي : ٢٤

(١٦) البكري : ١٢٠

(١٧) ابن الخطيب : ٣ ، ٩ ، ١٠

(١٨) أنظر . سعد زعلول عبد الحميد تاريخ المغرب العربي، ص ٤٢٢

و نحن لا نجد مررا لهذا التشكيك في وقت أحمت فيه المصادر على إثبات
لاعتيال كما أن هذا الأسلوب وسيلة مألوفة اتبعها خلفاء بني العباس للتخلص
من خصومهم في الشرق والعرب على السواء ولسوف يعولون عليها فيما بعد
للتخلص من المولى راشد وإدريس الثاني بالتواطؤ مع الأعالة كما سشت في
موصعه.

على كل حال - نرى أنه بعد أن أنحر الشياح مهمته في اعتيال إدريس
الأول عرج على إفريقية لإعلام إبراهيم بن الأغلب بنجاح المهمة. وأنفذه إبراهيم
بدوره إلى بغداد حيث ابتهج الرشيد لما جرى وكافأ الشياح على فعلته بأن ولاء
يريد مصر^(١٩) أما الرشيد فقد احتمل بالمناسبة حيث انرى الشعراء يذبحون
قصائد المديح عن قدرته وجبروته^(٢٠).

تبقى بعد ذلك إشكالية أخيرة هي توقيت الاغتيال. إذ تختلف المصادر في
هذا الصدد؛ فمنها ما تذكر وقوعه قبل عام ١٧٥هـ^(٢١) ومنها ما تؤكد حدوثه عام
١٧٥هـ^(٢٢) وأخرى ترجع عام ١٧٧هـ^(٢٣). لكن نقودا تحمل اسم إدريس
لأول ضربت عامي ١٧٨هـ، ١٧٩هـ^(٢٤) تقطع بخطأ كل التواريخ السابقة.

(١٩) لرفيق - ٢١٥

(٢٠) ممدح أحد الشعراء هارون الرشيد بقوله :

أنظى يا إدريس أمك فاعل	كيد الخليفة أو يفك حذار
بن السيوف إذا انتصاها عزمه	طارت وتنفذ دوعها الأعمار
هيهات إلا أن تكون بيلمه	لا يهتدي فيها إليث غبار
ملك كان الموت يتبع أمره	حتى يقال تطيعه الأقدار

(٢١) راجع التخصيلات عدد : محمد الطالبي : ٤٠٥.

(٢٢) بن الخطيب : ٣ : ١٩٦

(٢٣) بن أبي زرع : ٢٢

(٢٤) Colin, B S Monnaies de la periode Idrisite trouves a Volubilis, Hesperis XXII 1966.

P P 113-127

ومع ذلك يرى أحد الدارسين^(٢٥) المحدثين أن هذه العملة برغم كونها تحمل اسم إدريس الأول إلا أنها ضمنت بعد عامين من وفاته. إلا أن نرجح خطأ هذا الرأي استناداً إلى تاريخ محقق هو عام ١٧٩هـ^(٢٦) وهو العام الذي غادر فيه هريثة بن أعين إفريقية ووصل فيه الشاح إلى إقليم الراب حيث التقى إبراهيم بن الأعرب الذي وجهه إلى ولبلى حيث تمكن من اغتيال إدريس في نفس العام. وبذلك يتسق هذا القول مع العملة التي سكها إدريس سنة ١٧٩هـ.

ومهما كان الأمر؛ فالثابت أن الدولة الإدريسية لم تسقط بعد اغتيال إدريس الأول. كما أن راشد الذي تولى الوصاية على ابنه الطفل إدريس الثاني أزمع الأخذ بالثأر؛ فعول على إنفاذ حملة إلى إفريقية^(٢٧).

وتمثل رد الفعل العباسي في إيعاز الرشيد إلى إبراهيم بن الأعرب - عامله على الزب - بإنفاذ حملة مضادة لغزو دولة الأدارسة ونحن نخالف الرأي القائل بأن إبراهيم بن الأعرب توجه بالفعل على رأس جيش صوب الغرب وسجح في الاستيلاء على تلمسان^(٢٨). وحجة صاحبه في هذا الزعم نصوص أوردها الرقيق القيرواني في هذا الشأن. لكن بالرجوع إلى هذا المصدر وغيره لم نجد أدنى إشارة إلى سقوط تلمسان في يد إبراهيم. بل تخبرنا أن تلمسان آنذاك كان يحكمها آل سليمان أبناء عمومة الأدارسة. يؤكد خطأ هذا الزعم أيضاً إنشغال إبراهيم بن الأعرب بتحقيق طموحاته في حكم إفريقية حين تدخل في النزاع القائم بين

(٢٥) محمد الطالبي : ٤٠٦

(٢٦) الرقيق القيرواني : ٢٠٣.

(٢٧) ابن الأثير : الحلة السيرة : ١ : ٢٣٤، فبراير ١٨٦٦

(٢٨) محمد الطالبي : ٤٠٧

الوالي الشرعي محمد بن مقاتل العكي وبين الناصر تمام بن تميم^(٢٩)

وتأسيساً على ذلك يمكن القول أن حملة راشد وحملة إبراهيم بن الأغلب لم يقدر لهما الانتحام ألتة وأن إثارة أحبارهما كان من قبيل الدعاية السياسية ليس إلا؛ حيث لم يكن توسع أي من الطرفين عزو ديار الآخر لانشغال الأول بأمور الدولة الإدريسية بعد اغتيال إدريس الأول واشغال الثاني بمشكلات إفريقية

لذلك عول الرشيد على اتباع أسلوبه التقليدي في التآمر والاعتبال. وقد استهدفت مؤامراته هذه المرة اغتيال راشد بالاتفاق مع إبراهيم بن الأغلب. أما عن كيفية نجاح المؤامرة فهو ما سنفصله في البحث التالي. وحسب الإشارة في هذا المقام، و خطأ آخر وقع فيه أحد الدارسين^(٣٠) المتخصصين الثقافة حين ذهب إلى أن موت راشد لم يكن نتيجة اغتيال وإنما قتل في معركة ضد إبراهيم بن الأغلب. وليس أدل على خطأ هذا الزعم من شعر لإبراهيم نفسه من المفيد إثباته؛ حيث يقول^(٣١) :

ألم ترني بالكيد أرديت راشداً وإنى بأخرى لابن إدريس راشد
تناوله عزمي على نأى داره بمختومة في طيهن المكائد
ثلاثون ألفاً سقتهم لقتله لأصلح بالفرب الذي هو فاسد

وعلى إثر نجاح إبراهيم بن الأغلب في اغتيال راشد؛ كافأه الرشيد بتوحيته إفريقية، وأتاح له من السلطات والصلاحيات ما لم يتيح لغيره من الولاة لا شيء إلا ليحعل من إفريقية ثغراً عسكرياً يحول دون تسرب الإدارة شرقاً.

(٢٩) محمود اسماعيل : الأعالة . ٢٨ وما بعدها

(٣٠) أنظر : محمد الطالبي : ٤٠٧ .

(٣١) من الأمار : ١ : ٢٣٣

وفصلا عن أسلوب الاغتيال وتدمير المكائد ضد الأدارسة، اتبع العباسيون أسلوبا آخر أبعد ما يكون كذلك عن المواجهة العسكرية لم يكن هذا الأسلوب إلا تشويه الأسرة الإدريسية عن طريق التشكيك في نسبها. إذ شنوا حملة دعائية تروج لشائعة فحواها أن إدريس الثاني لا ينسب إلى أبيه بل إلى المولى راشد ولطالما اتبع العباسيون هذا الأسلوب المشين لتشويه خصومهم في الشرق والغرب على السواء.

فإذا كانوا قد أفلحوا في إثارة مسألة النسب لتبرير حقهم في الخلافة دون العلويين بعد قيام دولتهم سنة ١٣٢هـ واستئثارهم بالخلافة؛ فقد شنوا بعد ذلك حربا دعائية شعواء للتشكيك في نسب العواطم عن طريق الزعم بأصلهم اليهودي. وبالمثل اتعوا دات الأسلوب ضد الأدارسة كما أشرنا من قبل؛ وهو أمر فطن إليه ابن خلدون وكشف عن أسماه وملابساته وغيبته. ولا بأس من عرض بعض مقولاته في هذا الصدد. يقول ابن خلدون^(٣٢) : « وما يتاجى به الطاعون في نسب إدريس بن إدريس بن عبدالله الإمام بعد أبيه بالمغرب الأقصى... بالتطنن في الحمل المخلف عن إدريس الأكبر إنه لرashed مولاة قبحهم الله... كلا والله إنما صدرت هذه الكلمات من بني العباس... إذ أن نجد الدولة بإدريس بن إدريس كان عليهم أمكى من وقع السهام... وكان الفضل وهرم قد برلا بدولة العرب عن أن يسعوا إلى القاصية... وكان نسب بني إدريس بمواطنهم نفاس وسائر ديار المغرب قد بلغ من الشهرة والوضوح مبلغا لا يكاد يلحق ولا يطمح أحد في دركه... وليس في المغرب فيما نعلم من أهل بيت لكريم من يبلغ في صراحة سبه ووضوحه مبالغ أعقاب إدريس هذا من آل الحسن... »

(٣٢) المقدمة ٢٣ - ٢٦

هكذا. وقف ابن خلدون على الدافع من وراء هذه الحملة العباسية الدعائية ضد الإدارة، ويرحعه إلى عجزهم عن مناوئة خصومهم عسكريا.

وإذا كان هذا الأسلوب لم يحقق أعراسه - كما أوضح ابن خلدون - لم يجد العباسيون مناصا من العودة لأسلوب التآمر والاغتيال خاصة بعد أن شب إدريس الثاني عن الطوق وآزرته القبائل على اختلافها ونجح في توسيع رقعة الدولة الإدريسية بعد أن أعاد فتح الأقاليم التي غردت إيان طموحه، وأحيى المشروع الإدريسي الطموح في التوسع شرقا. لذلك تأمر العباسيون بالاشتراك مع الأغلبية من أجل إثارة المتاعب داخل الدولة الإدريسية بتحريض القبائل على الثورة وخاصة أوربة المعتزلية ومطغرة الصعربية^(٣٣)

وحين فشلت هذه المكائد لم يجد العباسيون بدا من التآمر على حياة إدريس الثاني بالتواطؤ مع الأغلبية كذلك. وقدر لهم تحقيق مأربهم^(٣٤).

على أن تدهور أحوال دولة الإدارة وأد مشروعهم التوسعي في ذات الوقت الذي آلت فيه الخلافة العباسية إلى المأمون الذي أبدى تسامحا مع العلويين إلى حد تعيين أحدهم - على الرصي - ولاية عهده. كل ذلك وضع حدا للعداء بين الطرفين، وأوكل العباسيون إلى الأعالية مهمة مراقبة بني إدريس، ونصرف العباسيون إلى أمور المشرق كما انصرف الإدارة إلى إتمام نشر الإسلام والتعريب في المغرب الأقصى^(٣٥).

وخلال العصر العباسي الثاني شغل العباسيون بالخطر الفاطمي الذي ورث المشروع الإدريسي في التوسع شرقا. كما شغلوا عن العاطميين أنفسهم باسترداد

(٣٣) سمرص لتفصيلات في البحث التالي.

(٣٤) سمرص لتفصيلات في البحث التالي.

(٣٥) محمد الطائي ٤١١

بمؤذهم في العراق بعد نطاول العسكر التركي على الخلفاء. وكان ذلك من أسباب ظهور الوهابيين الشيعة الريدية الذين لم يدخروا وسعا في الانتقام من خلفاء بني العباس بعد أن سيطروا على معظم أقاليم الخلافة في الشرق^(٣٦)

هكذا تأثرت العلاقات الإدريسية - العباسية بمعطيات صراع أعم بين العباسيين والعلويين في المشرق والمغرب على السواء.

ب - العلاقات الإدريسية - الأغلبية:

اتسمت العلاقات الإدريسية - الأغلبية بطابع العداء الذي ورثه الأغلبية عن بني العباس. إذ كان الأغلبية هم المنفذون للسياسة العباسية في الغرب الإسلامي بأسره. يضاف إلى ذلك أن ظروف تأسيس الإمارة الأغلبية جعلت سياستها لخارجية تتسق مع السياسة العباسية؛ فكان أعداء الخلافة في الغرب الإسلامي هم أعداء الأغلبية أيضا.

وسبق إيضاح عجز الخلافة العباسية عن استرداد نفودها في المغرب؛ الأمر الذي ساعد على تفاقم أخطار دوله المستقلة بعد اشتداد عودها وطموحها إلى تكوين دولة كبرى تضم المشرق والمغرب على السواء.

وأمام تفاقم هذه الأخطار لجأ العباسيون إلى تأسيس أسرة حاكمة قوية وموالية في إفريقية لتشكيل خط دفاع أول عن مصر وتسترد نفودها المفقود في المغرب والأندلس إن استطاعت إلى ذلك سبيلا. وهذا يفسر لماذا أسد الرشيد مرثيا إلى إبراهيم بن الأعلب بعد أن منحه صلاحيات واسعة تؤهله لمواجهة

(٣٦) محمود، سماعيل الحركات السرية في الإسلام، الفصل المعنون «المعزلة بين الطوائف العقلية والعمل السياسي»

أحطار الخصوم في سرعة وحزم. وهو أمر عجزت الخلافة من مركزها السعيد في بغداد عن الاصطلاح به. تماما كما فعلت بعد ذلك حين أسست حكم حرسا إلى الظاهرين لذات الأسباب وذات الأهداف.

وكان إبراهيم بن الأغلب مؤهلا للقيام بهذا الدور. ففصلا عن تاريخ والده وتاريخه هو. حين كان عاملا على الراب. في خدمة محططات العباسيين؛ كان يعد رجل الخلافة الأقوى في إفريقية التي مزقتها الاضطرابات الشعبية والسخائم العنصرية والقبلية.

وسبق أن أثبتنا أن إبراهيم ربط بين طموحاته في تولي إمرة إفريقية وبين الولاء للخلافة العباسية عن طريق مؤازرة ولائها في المغرب وتنفيذ مخططاتها إزاء الإدارة.

أما عن مصالح الأغلبة في الارتباط بالخلافة؛ فترجع إلى طبيعة قيام دولتهم العربية وسط بحر من الأعداء العنصريين والمذهبيين لذلك كانوا بحاجة إلى عون الخلافة ماديا ومعنويا. وقد اتسقت هذه المصالح مع مصلحة ل عباسيين في أن تظل إفريقية بمنأى عن أحطار الدول المستقلة في العرب الإسلامي، وأن تظل ثغرا طرفداريا يحول دون تسرب أطماعها شرقا. وهذا يدحض مزاعم بعض الدارسين^(٣٧) الذين ذهبوا إلى أن سياسة الأعالية إزاء هذه الدول. ومن بينها دولة الإدارة. اتسمت «بعلاقات طيبة أشبه ما تكون بحسن الجوار والتعيش السلمي». والصواب أن مصالح الأعالية في الحفاظ على استقلال إمارتهم ارتبطت باستمرارية تنفيذهم المخطط العباسي إزاء الإدارة، وعبرهم من القوى التي تطلعت للاستيلاء على إفريقية كخطوة أولى نحو الزحف إلى الشرق

(٣٧) راجع: سعد رعلول عبد الحميد: ٤٥.

لذلك كان العداء بين الأدارسة والأغالة قدرا محتوما أملته طبيعة تأسيس كل من الدولتين لكن هذا العداء لم يترجم قط لنشاط عسكري فعلي نظرا لقصور قوة كل من الدولتين عن الإطاحة بالأخرى. هذا فضلا عن مطومة «التوارن» التي حكمت كافة العلاقات بين قوى المغرب آنذاك بحيث لم يؤد التنافس والصراع بينها قط إلى تغيير خريطة المغرب السياسية.

يضاف إلى ذلك تأثير العامل الاقتصادي الكامن في التبادل التجاري بين سائر هذه القوى؛ الأمر الذي خفف من غلواء الخلافات السياسية والاختلافات الإثنية والمذهبية.

وهذا يفسر لماذا ترحم العداء بين الأغالة والأدارسة إلى صيغ وصور أخرى كالتآمر والاغتيال وتشجيع المترين؛ فضلا عن «الحرب النفسية» الكامنة في التلويح بالحرب العسكرية المتبادلة.

فدحاول رصد مسيرة العلاقات الإدريسية - الأغلبية في ضوء هذه الاعتبارات الأولية.

وننبه إلى أننا لن نترسل في ذكر ما سبق ذكره بصدد دور إبراهيم بن الأعب - حاكم الزاب - في تنفيذ مخططات العباسيين إزاء الأدارسة^(٣٨) وما يعنينا أن إبراهيم لم ينط بحكم إفريقية إلا نتيجة جهوده في لتآمر لاغتيال إدريس لأول ومن بعده المولى راشد. لقد كوىء على ذلك حين أسند إليه الرشيد الولاية وفق صيغة فريدة تجمع بين خصائص إمارتي الاستكفاء والامتياز.

(٣٨) عن مريد من التخصيلات؛ راجع محمود إسماعيل؛ الأعالة ٤٧ وما بعدها

سنأف إبراهيم بن الأعلب بعد ولاية إفريقية عام ١٨٤هـ سياسته، السابقة صد الأدارة عندما كان عاملا على إقليم الزاب. خاصة وأن نجاحه في عيل راشد لم يحل دون استمرارية الدولة الإدريسية، كذا لم يقض على مشروعها التوسعي الذي استهدف إفريقية نفسها.

ذكر بعض المؤرخين^(٣٩) أن إبراهيم من الأغلب شرع في عرو دولة الأدارة عقب تولية الإمارة؛ لكن أصحابه هو عن ذلك وفسر بعض الدارسين^(٤٠) تقاعس إبراهيم عن إتمام الغزو «بكرهه قتال إدريس الثامن» ونحن نستبعد فكرة الغزو من أساسها آنذاك نظرا لانشغال إبراهيم بمواجهة التحديات التي واجهت توليه الإمارة. لم يكن توسعه تجاهل تلك الاخطار ليقوم بمغامرة مجهولة العواقب وراء الحدود.

مع ذلك لا نستبعد إعلان إبراهيم عن هذا العرو المرمع من قبيل بث الخوف في قلوب خصومه ليتحاشى عزوا مضادا يشونه على إفريقية. ولسوف نلاحظ أن التلويح بالحرب «تكتيك» شائع طالما عول عليه الأغلبة حين تتفاقم مشكلاتهم، لداخلية، أو حين يتعاضم خطر الأدارة الذي يهدد إفريقية.

استعاض إبراهيم عن الصراع المسلح؛ بشن حرب دعائية تشكك في نسبة إدريس الثاني لأبيه جريا على السياسة العباسية في هذا الصدد. يقول ابن خلدون^(٤١) «صدرت هذه المزاعم من لدن بني العباس وبني الأعلب».

وحيث فشل هذا الأسلوب في تحقيق أهدافه؛ عول إبراهيم على إثارة المكائد داخل دولة الأدارة. إذ حرص قبيلة مطهرة للثورة على إدريس الثاني.

(٣٩) اس لاثير: انكامل ٥ ١٠٤، القاهرة ١٩٥٧

(٤٠) راجع: محمود إسماعيل: الأعالة: ١١٧

(٤١) مقدمة: ٢٤

ومعلوم أن مطهرة اعتنقت المذهب الخارجي الصفري أوائل القرن الثاني الهجري ثم تصدت لزعامة الثورة الصفرية الأولى ضد بني أمية عام ١٢١هـ (٤٢) ثم كفت عن الثورة حين تقلدت زعامة زعامة زعامة. وقد راودها حلم تأسيس دولة خارجية صهرية شأن مكاسة التي أقامت دولة المدراس سنة ١٤٠هـ وبورعواطة التي أسست دولتها قبل ذلك. لكن قيام الدولة الإدريسية عام ١٧٢هـ وأد أحلامها. لذلك بايعت إدريس الأول صاغرة. ثم سخطت عليه بعد أن أئخر في الخوارج الصفرية. ومرغم استرضاء إدريس الثاني زعيمها سهل بن عبد الواحد - حتى غدا «صاحب سره» (٤٣)، إلا أنها لم تنس ما حل بها على يد والده من قبل. وظلت تتربق الفرص للانتزاء حتى لاحت حين اتصل بها إبراهيم بن الأغلب الذي «حض زعيمها سهل على ترك طاعة إدريس إلى طاعة هرون» (٤٤) ودارت مراسلات متبادلة بين إبراهيم بن الأغلب وسهل (٤٥) أسفرت عن انتزاء مطهرة ضد إدريس الثاني. ويبدو أن الأخير نجح في محو لتمرد وأئخر في المنتزين. بحيث لم يجد سهل مناصا من الهرب ممن معه من شيوخ مطهرة إلى دولة الأغالة حيث أنفذهم إبراهيم بن الأغلب إلى بغداد؛ فرحب الرشيد بمقدمهم (٤٦). وضاعت سدى بداءات إدريس الثاني كي يعود

(٤٢) محمود إسماعيل: الخوارج: ٦٤ وما بعدها

(٤٣) لسوري: حياة الأرب ٢٦ ٢٨، مخطوط مدار الكتب المصرية، ابن خلدون ٤، ١٤.

(٤٤) نفس المصدر والصفحة

(٤٥) ورد في رسالة من سهل إلى إبراهيم ما يلي:

لنكشف عن قلبي صميم خلافي
أرد الهوى للحق حين سواي

لئن كنت تدعونني إلى الحق ناصحا
فمبجل على رد رأي قلبي
وحاوه إبراهيم يقول

تموص منه طاعة بحلاف
تجده على الإسلام خير مكاف

عرصت على البهلول ما إن أصابه
فبايع لهرون الإمام بطاعة
انظر أس الأبار: ٢٠١

(٤٦) منه ٢٠٦

بهلول وصحبته إلى المغرب الأقصى (٤٧).

ويسمى نحاح إبراهيم بن الأغلب في استمالة بهلول المطعري عن حقيقتين هامتين؛ الأولى: مواصلة إبراهيم بن الأغلب سياسة الكيد للإدارة نمشياً مع السياسة العباسية والثانية: ضالة الحانب المذهبي بالقياس للعامل السياسي؛ حيث تحلى زعيم مطغرة عن مذهبه الخارجي وتعاون مع الأغالة والعباسيين السنة نكاية في الإدارة.

على أن نحاح إدريس الثاني في إحباط تأمر مطغرة، كذا نحاحه في استمالة قبائل البربر الأخرى حتى «قويت جنوده وأتباعه وعظمت جيوشه وأشباعه» (٤٨)؛ دفعه إلى الرد بالمثل على تأمر إبراهيم بن الأغلب.

تمثل هذا الرد في تحريض خريش الكندي - من زعماء عرب إفريقية - لثورة على إبراهيم؛ منتهرا تعاضم ظاهرة الشعوبية في إفريقية آنذاك فضلاً عن الصراع بين السنة والمعتزلة. ويرى أحد الدارسين (٤٩) أن ثورة خريش استهدفت الأغلبة والعباسيين سواء بسواء. وأن يد إدريس الثاني كانت ضالعة في إثارتها؛ حيث استنفر العلويين في إفريقية للتنصل من طاعة الأغلبة كما يرى في الحركة ثورة زيدية قحه. يقول في هذا الصدد «إن الجو الذي دارت فيه الثورة والقمع الذي تلاه تذكرنا تماماً بالفتن التي اضطلع بها العلويون في الشرق من حين

(٤٧) كتب إدريس الثاني إلى بهلول:

أهلول قد حشمت نفسك خبطة	تبدلت معها ضلة برشاد
أصلك إبراهيم من بعد داره	فأصبحت مفاداً بغير فساد
كأنك لم نسمع بذكر ابن أغلب	وما قد رمى بالكيد كل بلاد
ومن دون ما منك نفس خاليا	ومساك إبراهيم خسرط فتاد

(٤٨) عيون تاريخ مدنة فارس: ٢١، مخطوط بدار الكتب المصرية.

(٤٩) بطر: محمد الطائي: ١٥٨

لأحر. تلك التي كان يثيرها حفة من الأشخاص الذين كانوا يستحيون لدعوة،
أحد أفراد ذرية علي أو أحد أعضاده المنخفين».

ومغض النظر عن ركافة التعبير؛ نوافق الباحث فيما ذهب إليه من تحريض
إدريس الثاني لثوار. لكننا نحالفه الرأي بأن الحركة ثورة زيدية كسائر ثورات
الزيدية بالشرق بل يرى أن زعيم الثورة كان معتزليا استجاب لتحريض إدريس
الثاني الذي كان لا يزال على وئام مع المعتزلة داخل دولته. ونظرا لخطورة
الإشكالية من المفيد أن نشت مص رسالتين متبادلتين بين خريش لكندي
وإبراهيم بن الأغلب؛ ثم نتناولها بالدرس والتحليل بغية الكشف عن هوية الثوار
مذهبا.

أما عن رسالة خريش فقد ورد بها ما يلي^(٥٠) :

«من خريش القائم بالعدل إلى إبراهيم بن الأغلب

أما بعد - فإنني أقمت على الخروج قل يومي هذا لأنني كنت أنتظر أن
تفيكم الحرب. فلعمري لقد اراني الله فيكم ما قوي به أهل دعوة الحق
عليكم. فبليت أنت وعلمت أهم منقسمون بين خوف منك ورجاء لك؛
عرفت قلة طمعهم فيك. وإن كان أحد ممن ولي هذا الثغر ممن لا يرى طاعته
يستحق أن يرصى بولايتيه؛ لكنت أنت ذلك. وقد كان علي بن أبي طالب رصي
الله عليه يقول إذا ولي عليكم عدوكم من أهل الملة فلا تتبعوهم. ولست
أطلبك إن خرجت عن الثغر فلا ترد أن تصلي بحربي وليكن رأيك طلب
سلمي والسلام».

ورد عليه إبراهيم بن الأغلب بقوله^(٥١) :

(٥٠) اس الأبار . ٢٣٧ ، ٢٣٨

(٥١) عه . ٢٣٩

«من إبراهيم بن الأعلب إلى خريش رأس الضلال. سلام على من اتبع الهدى

أما بعد فإن مثلك مثل العوصة التي قالت للنخلة وسقطت عليها استمسكي فإني أريد الطيران. فقالت النخلة ما شعرت بسقوطك فيكرسي طيارك. فأما انتطارك في الحرب فناء، فلو لم يبق في المغرب من أهل الطاعة عيري ما وصلت أنت فيمن معك بخلافكم إليه. ولرجوت أن أظهر بطاعتي وبصرة دولة أمير المؤمنين أطال الله بقاءه. فكيف وعدني من شيعته وأبناء أنصاره من يعلم الله أني أرجوه أن ينتقم منك على يدي. وأما ما ذكرت عن علي بن أبي طالب رضوان الله عليه؛ فذاك أمر غاب عنك. وإن كان كما ذكرت؛ فلست مهم لأن أهل الملة خلافهم خلاف هوى في نقمة على جور. وخلافكم خلاف فرقة دين وشق عصا المسلمين. وستعلم أنت وأصحابك إن لقيناكم غدا أنا ستبعمكم، وإن صبرتم أنا سنغنيكم».

ولبدأ أولاً بتنفيذ القول بزيديّة الحركة تأسيساً على استشهاد خريش بعبارة لعلي بن أبي طالب. ويلاحظ بدء أن خريش لو كان زيدياً لذكر عبارات المديح المألوفة عند الشيعة مردفة باسم علي، لكنه اقتصر على القول «برضي الله عليه». كما أن الاستشهاد بعبارة علي لا تنفي أن خريش كان معتزلياً. ذلك أن واصل بن عطاء كان من ورثة علم علي. كما كان أستاذاً لزيد بن علي زيد العابدين مؤسس الفرقة الزيدية.

أما القرائن على اعتزالية الحركة؛ فنقف عليها من طبيعة الحوار الجدلي السحالي الذي اشتهر به المعتزلة والذي يتضح تماماً في رسالة خريش كذا ما تحمّل به الرسالة من الإلحاح على مقولة «العدل» ودعوة أهل الحق. وهو مبدأ عترالي قح حتى أن المعتزلة عرفوا «بالعدلية» وبأهل العدل والتوحيد» كذلك

تفصح الرسالة عن رأي المعتزلة في الثورة من اشتراط الخروج تحت راية إمام عادل واختيار التوقيت المناسب؛ وهو ما يظهر بوضوح في مفتتح الرسالة أما حاشية الرسالة فتظهر رأي المعتزلة في الحرب والسلام حيث ربط خريش بين خروج إبراهيم من إفريقية وبين الكف عن قتاله.

أما رسالة إبراهيم بن الأغلب إلى خريش؛ فتتطوي خاتمها على ما يفيد وجود صلة بين الثوار وبين دولة الأدارسة. يظهر ذلك في قول إبراهيم «إن نقيناكم عدا أُنْ مستبعمكم» إذا ما هربتم إلى الدولة الإدريسية

هذا ما تفصح عنه فحوى الرسالتين من دلالات. ولا نعدم قرائن أخرى تؤكد دلالات الرسالتين على اعتزالية حركة خريش. منها كون خريش من لأرستقراطية لعربية في إفريقية. ومعلوم أن معتزلة إفريقية كانوا يتمنون إلى هذه لطيفة. وإذا ما علمنا أن أنصار خريش بلغوا عشرة آلاف؛ استحال القول بأنهم كانوا زيدية لأننا نعرف أن الدعوة الزيدية لم تحرز نجاحا يذكر في إفريقية، على عكس المعتزلة الذين انتشر مذهبهم انتشارا واسعا كما أثبتت في دراسة سابقة^(٥٢)، وأخيرا ما جرى من رفع الثوار شعار المعاداة لبني العباس^(٥٣)؛ يعد رد فعل طبيعي لما حل بالمعتزلة في العراق من محن في عهد الرشيد الذي طردهم من بغداد وبدد حلفائهم في مساجدها^(٥٤).

على كل حال - كانت ثورة خريش الكندي في إفريقية نتيجة تحريض من إدريس لثاني كرد مباشر على تحريض إبراهيم بن الأغلب قبيلة مطهرة ضد إدريس.

(٥٢) رجع محمود اسماعيل - الحركات السرية في الإسلام، الفصل المعنون «معتزلة بن نصر العقلي والعمل السياسي»

(٥٣) محمود اسماعيل : الأعلى : ٣٣

(٥٤) محمود اسماعيل - الحركات السرية، نفس المقال

أما عن مصير الثوار؛ فقد أثنى فيهم إبراهيم قتلا وأسرا وطردا من إفريقيا

ونديبي أن تتحه أعداد غفيرة مهم إلى دولة الأدارسة. ونديبي أيضا أن يرحب إدريس الثاني بمقدمهم. إذ نعلم أنه أسكنهم عدوة القرويين بمس سة ١٩٢ هـ كما هت وعود أخرى من الأندلس أسكنهم إدريس عدوة الأندلسيين. ونظرا لخبرة القرويين بفنون القتال وخبرة الأندلسيين بأمور العمران؛ فقد أدت هاتين المحرتين إلى تعاظم قوة الدولة الإدريسية

ولم يجد إبراهيم بن الأغلب مناصا من التلويح - كعادته - بغزو دولة الأدارسة. ويخطيء بعض المؤرخين^(٥٥) الذين ذهبوا إلى أن إدريس الثاني كاتب إبراهيم بن الأغلب يستعظمه في عدم غزو دولته مذكرا إياه بقربته من الرسول ﷺ. كما يخطيء البعض^(٥٦) الآخر ممن ذكروا أن إبراهيم استحباب لإدريس «فكف عنه» «ولم تجر بينهما حرب»^(٥٧). والصواب ما ذكره ابن خلدون^(٥٨) بأن إبراهيم «صالح إدريس وكف عن مدافعتة لا شيء إلا لعجزه». وقد أحد جوتييه^(٥٩) برأي ابن خلدون تأسيساً على تعاظم قوة إدريس الثاني بعد قدوم لعرب الوافدين من إفريقية والأندلس. كذلك ذهب فلز هيدن^(٦٠) حين أشار إلى أن إدريس لثاني ما كان بحاجة لاستشارة عطف الأغلبة.

(٥٥) رجع، ابن الأبار : ٢٠٢

(٥٦) ابن الأثير : ٥ : ١٠٤

(٥٧) التبري : ٢٦ : ٢٨

(٥٨) ابن خلدون : ٤ : ١٤

(٥٩) Les siecles obscurs, P 276

(٦٠) La Berbenn Orientale P 262

ورى كان قورنل^(٦١) أكثر إيضاحاً حين ذهب إلى أن لخصمين ما كان
بوسعهما أن يسال أحدهما من الآخر^(٦٢). وعلى ذلك يمكن الجزم بأن إبراهيم هدد
إدريس بالعزو لا لشيء إلا لتحاشي غزو إفريقية من قبل إدريس.

وليس أدل على «عدم وقوع مصالحة» بين الطرفين من استئناف إبراهيم بن
الأعبل سياسة تدبير المكائد ضد إدريس الثاني. ذلك أن انحياز إدريس إلى
العناصر العربية التي أسد إليها الماصب العليا في دولته^(٦٣) أثار سخط قبائل
البربر وخاصة قبيلة أوربة. لذلك لم يدخر إبراهيم وسعاً في تحريضها على الثورة.
وبرغم اتفاق المؤرخين^(٦٤) حول دور إبراهيم في إثارة إسحاق الأوربي ضد
إدريس الثاني؛ لم يذكروا شيئاً عن أسباب ذلك ولا عن كيفية وقوعه اللهم إلا
أن «إدريس الثاني بطش بأوربة وأقدم على قتل زعيمها»^(٦٥).

ويمكن الكشف عن أسباب سخط أوربة وكيفية تأمرهم مع إبراهيم إذا
أدركنا دور أوربة الهام في قيام دولة الإدارة. ومع ذلك لم تتحقق طموحاتها
كعصية مؤسسة؛ إذ استعان إدريس الأول بقبائل زناتة لتحجيم نفوذ أوربة. كما
أسس إدريس الأول مدينة فاس واتخذها إدريس الثاني عاصمة بدلاً من وليم

(٦١) Les Berbers, Vol. I, Paris, 1875, P. 260

(٦٢) أما ما أورده ابن الأثير من أشعار دلت على المعنى على ضعف موقف إدريس الثاني؛ يرى أن
مضمونها يوحي عام يستعاد منه العكس؛ إذ يعصم عن دعوة إدريس الثاني إبراهيم لاعتناق
مذهبه. وهناك بعض هذه الأبيات -

أذكر إبراهيم حق محمد وعثرته	والحق غير مغفور
وأدعه للأمر السدي فيه رشده	وما هو لولا رأيه بحقول
فإن أنزل الدنيا حين أمامه	دلال يوم للمصاب طويل

أنظر : ابن الأثير : ٢٠٢

(٦٣) ابن خلدون ٤ : ٤٠٧، مجهول تاريخ مدينة فاس ٢١، ١٤٧، Op Cit P 147

(٦٤) لكري : ١٢٣، Founel Op Cit P 461

(٦٥) لكري : ١٢٣

حرىا على نفس السياسة. ويديهي أن تزداد أوربة مسخطا على إدريس الثاني بعد أن حرماها من المناصب الهامة وأوكلها إلى العرب الوافدين.

انتهر إبراهيم بن الأغلب هذه الفرصة وعول على التدخل في الشؤون الداخلة لدولة الأدارسة خاصة بعد أن فرغ من أخطار ثورات العرب داخل إفريقية^(٦٦). وإذا كنا نحالف مؤرنل^(٦٧) فيما ذهب إليه من أن إبراهيم استهدف بتدخله هذا عودة عرب عدوة القرويين إلى إفريقية؛ فلا أقل من التسليم برغبته في إثارة السخائم العصبية بين العرب والبربر داخل الدولة الإدريسية لتشغل إدريس الثاني عن التفكير في غزو إفريقية.

ولم يعد إبراهيم وسيلة للاتصال بزعميم أوربة وتآليه ضد عرب فاس والأدارسة. ويبدو أن إدريس الثاني كشف عن هذا التآمر؛ فهم مردع أوربة بأن قتل زعيمها.

تنفس الأدارسة الصعداء بموت إبراهيم بن الأغلب سنة ١٩٦هـ. إذ خلفه ابنه أبو العباس الذي شغل بمواجهة أخطار بني رستم في طرابلس وأحوازها^(٦٨). انتهر إدريس الثاني هذه الظروف لتوطيد دعائم حكمه بعد زعزعته نتيجة تفاقم السخائم العصبية داخل دولته. وبالفعل نجح في استعادة ولاء أوربة. وقد جيوشه لتأكيد نفوذه في بلاد المصامدة والهيمية على خطوط التجارة مع السودان^(٦٩). كما نجح في دعم سيادته على تلمسان بعد أن أثنى في الخوارج لإباضية والصفورية بنواحيها^(٧٠).

(٦٦) محمد لطالبي. ٤١٢

(٦٧) Les Berbers, Vol I, P 497

(٦٨) محمود إسماعيل: الخوارج. ١٨٧ وما بعدها

(٦٩) Vonderheyden. Op cit p. 263

(٧٠) رجع. العلاقات الإدريسية - الرستمية

وكان توسع إدريس إحياء مشروع غزو إفريقية عن طريق تلمسان؛ لكن أبلولة حكم إفريقية إلى أمير قوي هو زيادة الله الأول أحبط المشروع. ويحطى فندرهيدن^(٧١) حين ذكر أن الأمير الأغلي لم يعبا بما يدور في تحوم دولته العربية ذلك أن زيادة الله الأغلي رغم مشاغله الداخلية في مواجهة ثورات الجند من جديد، ورغم تدؤب الخطر البيزنطي في صقلية، فضلا عن تكدر علاقته - إلى حين - بني العباس؛ هاله ما وصل إليه حال إدريس الثاني بعد أن وطد نفوذه داخل دولته خصوصا في تلمسان وأحوارها. يقول ابن خلدون^(٧٢) أنه «بعث إلى إدريس بأمره بعدم تجاوز حد التحوم» على الرغم من أن التوسع الإدريسي في هذه المواحي تم على حساب بني رستم.

ويبدو أن تطاول إدريس الثاني وتوسعه في حوز تلمسان كان من أسباب إقدام زيادة الله الأغلي على تحسين علاقته بالخليفة المأمون العباسي بعد أن شابهها الكدر حين أرمع المأمون الانتقاص من سلطات الأمير الأغلي ويبدو كذلك أن المأمون كف عن هدفه حين أوضح الأمير الأغلي له تعاطم أمر إدريس^(٧٣).

أصبح توسع زيادة الله الأول مواصلة سياسة أبيه إبراهيم في الكيد للإدارة خاصة بعد قضائه على ثورات الجند في إفريقية وإنفاذ حملة على صقلية سنة ٢١٢هـ لوقف الخطر البيزنطي وعودة علاقته الودية من بني العباس. لذلك أخطأ فندرهيدن^(٧٤) حين ذهب إلى أن زيادة الله كان يخشى إدريس الثاني.

(٧١) La Berberie Orientale p. 263.

(٧٢) المقدمة. ٥٢

(٧٣) يقول ابن خلدون «درج الأعالة على إنقاذ سكة إدريس في محهم وهداياهم إلى بني العباس هريلا بنشداد شوكتة وتمظيها لما دفعوا إليه من مطالبته»

انظر: المقدمة. ٢٥

(٧٤) La Berberie Orientale. p. 264

ومهما كان الأمر؛ فقد أقدم الأمير الأغلب على حيك مؤامرة انتهت باعتقال إدريس الثاني؛ رغم شكوك بعض الدارسين^(٧٥) على أساس «أن رواية التآمر تلك انعكاس لمشغل خيال قلق مرتاب مشحون بالذكرى القاسية عن مصير إدريس الأول».

وسنحس لا نحدد مررا لهذا الشك لعدة أسباب. أولها: أن أسلوب الاعتقال السياسي أسلوب شائع في العلاقات الأغلبية الإدرسية. فقد سبق لإبراهيم بن الأغلب المشاركة في مؤامرتي اغتيال إدريس الأول ومولاه راشد. وثانيها: إجماع المؤرخين، لقدامى على صحة واقعة الاغتيال. يقول ابن الأبار^(٧٦): «إحتال زيادة الله على إدريس حتى اغتاله». ويؤكد ابن عذارى^(٧٧) أن «إدريس الثاني مات مسموما».

وتلوذ المصادر بالصمت عن كيفية تدبير المؤامرة. ومن المرجح أن زيادة الله بن الأغلب أوكل أمر الاتصال بإسحق الأوربي المعتزلي إلى صناع من المعتزلة كذلك؛ خاصة وأن الاعتزال كان آنذاك هو المذهب الرسمي في إفريقية الأغلبية. أما عن تاريخ الاغتيال؛ فهو موضوع خلاف بين المؤرخين. فمنهم من يرى أنه وقع عام ٢١٣هـ^(٧٨)، ومنهم من رجح عام ٢١٤هـ^(٧٩). ونحن نرجح لتاريخ الثاني استنادا إلى عملة تحمل اسم إدريس الثاني ضربت عام ٢١٣هـ^(٨٠).

(٧٥) بطرس محمد الطالبي: ٤١٠.

(٧٦) حجة البراء: ٢٠٠.

(٧٧) البيان لمعرب: ١: ٢٩٩.

(٧٨) ابن عذارى ١: ٢١١، ابن خلدون ٤: ٢٧، ابن الأبار ٢٠٠، الكري ١٢٣.

(٧٩) بطرس ابن الأثير: ٥، ٢١٩.

(٨٠) اكتشف ليحي برزغمال عملة باسم إدريس الثاني ضربت عام ٢١٤هـ.

راجع محمد الطالبي: ٤١١، الحاشية.

باغتيا لإدريس الثاني وتقسيم دولته بين أبنائه، أحدثت دولة الأدارسة طريقها إلى التداعي والانحيار لذلك لم يعول الأغلبية على مناورتها^(٨١) بعد عجزها عن تشكيل أدنى خطر على إفريقية. وشغل الأغلبية بالفتوحات في صقلية وحنوب إيطاليا، كما شغل العباسيون بالصراع مع العسكر التركي ثم مع سلاطين بني بويه. وهذا يعني انتهاء الظروف التي أفررت سياسة العداء

ليس أدل على ذلك من تقاعس الأدارسة عن مناصرة قبائل زناتة في سطيف وبلزمة حين استعانت بهم للخلاص من بطش الأميرين الأعلىين أبي العرائق وإبراهيم بن أحمد^(٨٢). وبالمثل أحجم الأغلبية عن غزو تلمسان التي استقل بها آل سليمان رغم ضعفهم وامستكانتهم^(٨٣).

لقد ظهر خطر جديد هدد الدولتين الأغلبية والإدرسية؛ ووضع حداً لما كان بينهما من إحس ومحس؛ بل وضع نهاية لدولة الأغلبية سنة ٢٩٦هـ وغزو دولة الأدارسة سنة ٣٠٧هـ.

هكذا اتسمت العلاقات الإدرسية - الأغلبية بطابع العداء الذي لم يصل إلى حد امتشاق الحسام بقدر ما اتخذ صوراً شتى من التآمر وتدبير المكائد والاعتياالات.

(٨١) Provencal, L. Histoire de l'Espagne Musulmane, Vol. I, Alger 1944 p. 381

(٨٢) اس عدارى ١ : ١٦٠، Vonderheyden. Op. cit. p. 264.

(٨٣) Ibid. 265

الفصل الثاني سياسة الإدارة إزاء دول الخوارج

شهدت بلاد المغرب قيام دول خارجية ثلاث هي دولتي بورغواطة وبي مدرار الصعيريتين بالمغرب الأقصى، ودولة بني رستم الإباضية بالمغرب الأوسط. وكان ظهور هذه الدول الأولى سنة ١٢٧هـ والثانية سنة ١٤٠هـ والثالثة سنة ١٦٢هـ تتويجا لدعوات سرية أعقبتها حركات ثورية ضد الأمويين ومن بعدهم العباسيين. وسقطت دولتا بني مدرار وبي رستم على يد العاطميين سنة ٢٩٧هـ، أما بورغواطة فقد عمرت إلى عصر الموحدين.

وبرغم وحدة ظروف نشأة هذه الدول ودولة الإدارة، حيث قامت جميعا على أنقاض نفوذ الخلافة الشرقية، وبرغم وحدة المصير - إذ تعرضوا جميعا لأخطار العباسيين والأغلبة - اتسمت علاقة الإدارة بها جميعا بطابع العداء.

وبرغم إلحاح الدارسين على الخلاف المذهبي في تفسير هذا العداء، نرى في العوامل الاقتصادية والاجتماعية والاستراتيجية الدافع الحقيقي لصياغته وتأصيله. ذلك أن العلاقات الدولية كانت ولا تزال تخضع لعامل المصلحة وليس للدين أو المذهب أو رابطة الدم.

إن نظرة صحيحة وشاملة لتحديد أبعاد الصراع الإقليمي - الخارجي يجب أن تضع في الاعتبار قيام دولة الإدارة وتوسعها على حساب الدول الخارجية

كما أن معطيات الجغرافيا التي حددت موضع دولة الأدارسة بين تلك الدول الضعيفة التي أحاطت بها من الشرق والغرب والجنوب؛ جعلت الصدام بين الطرفين لا مندوحة عنه. ذلك الصدام الذي اتخذ طابع الصراع العسكري - على عكس علاقة الأدارسة بالعباسيين والأغلبة وأموي الأندلس - الذي أمسك فيه الأدارسة برمم المبادرة في الغالب الأعم واكتفت دول الخوارج بردود الأفعال. لذلك كان التوسع والغلبة الإدريسية على حساب جيرانهم الضعفاء في معظم الأحيان.

وتأسيسا على ذلك؛ يمكن الجزم بالدوافع الاقتصادية والاجتماعية والاستراتيجية باعتبارها ححر الزاوية في صياغة السياسة الإدريسية التوسعية.

فيما يتعلق بالحافز الإقتصادي؛ ملاحظ أن المناطق التي استهدفها التوسع الإدريسي كانت إما سهولا غنية بالإنتاج الزراعي والحيواني كسهول تامسنا البورغواطية. وإما مناطق ذات ثروات معدنية كإقليم درعة الغني بالفضة التابع لبني مدرار. وإما مدنا ذات أهمية تجارية كتلمسان وموانئ المغرب الأوسط على البحر المتوسط ذات الصلة الوثيقة بتجارة المشرق والأندلس، وكانت تابعة لبني رستم، أو مدنا وطرقا ومافد صحراوية على صلة بتجارة السودان كطريق سجلهاصة في دولة بني مدرار وطريق تاروادت في الدولة البورغواطية. لم يكن حزاما أن يوحه الأدارسة حملاتهم صوب هذه النواحي لغزوها وانتزاعها من جيرانهم الخوارج.

أما العامل الاجتماعي؛ فيمكن الكشف عنه من خلال فهم طبيعة السياات القبلية باعتبارها النمط السائد في مغرب القرون الوسطى. وسوف تعكس هذه السنى تأثيراتها على ماجرى من صراع بين الأدارسة وحيرانهم. إذ حرص الأدارسة على الهيمنة على المناطق الأهلة بالسكان كتلمسان وأحوازا حيث مصدرب رنائة

من معراوة وبني يفرن. كذا أنقذوا العديد من الحملات نحو بلاد المصامدة
نوارنة قبائل الزناتية وقبيلة أوربه التي مثلت العصية المؤسسة للدولة
الإدرسية.

كما ألحت المسألة القبلية وفرصت وجودها وأبرزت آثارها على السياسة
إخارجية الإدرسية إزاء جيرانها الخوارج؛ خاصة وأن الكثير من القبائل المقيمة
في دولة الأدارسة كان لها امتداداتها في دول الخوارج المجاورة. وفي هذا الصدد
لعبت القبائل البدوية - التي لم تعبأ بالحدود السياسية - دوراً في إثارة المشكلات
بين الأدارسة وجيرانهم خصوصاً بعد اقتران العصية بالمذهبية، وارتباطها مع
بالدافع الاقتصادي. إذ نعلم أن دولة الأدارسة عاشت في كنفها أقليات مذهبية
شتى؛ سنية واعتزالية وإخارجية. كانت هذه الأقليات تحرص على دفع زكاة أموالها
لشيوخها ورؤساء طوائفها في الدول الأخرى المجاورة فالخوارج الصفرية في دولة
الأدارسة حرصوا على موالاة بني مدرار. والبورغواطين ودوا لو تنصلوا من
تبعيتهم للأدارسة وعاشوا في كنف دول نظرائهم في المذهب. كما عاشت أقليات
زيدية واعتزالية في كنف الدولة الرستمية سعت للانضمام للأدارسة كما صمت
دولة الأدارسة بعد استيلائها على تلمسان عناصر زناتية إناصية طالما أثارت
المتاعب في وجه الأدارسة لصالح بني رستم. لذلك حق لأحد الدارسين^(١)
الناهين القول بأن تلك النيات الإثنية الطائفية شكلت «حوزات متقطعة» شكلت
حجر عثرة أمام هيمنة «المخرو» في مغرب القرون الوسطى.

وبالمثل شكلت محرات القبائل بين تلك الدول دون حساب للمحدود
السياسية مشكلات كبرى أدت إلى إثارة الصراع العسكري المسلح خاصة في

(١) نظر محمد الطائي، المرجع السابق ص ٣٨٩

مناطق النخوم. وحق لذات المدارس^(٢) القول بأن الحدود بين دولة الأدرسة وبين جيرانها كانت «حدودا مائعة حداة». ولطالما انتهك الأدرسة أنفسهم هذه الحدود خاصة في المناطق الاستراتيجية كتلمسان ومضيق تازا وأعلى شلف؛ باعتبارها منافذ هامة تخدم المشروع السياسي الإدريسي الطموح في التوسع شرقا

ولعل هذا المشروع كان من أسباب تكوّن محاور سياسية في المغرب الإسلامي؛ أحدهما «عماسي- أغلبي» للحيلولة دون توسع الأدرسة شرقا والآخر «أموي أندلسي رستمي مدراري بورغواطي» للحيلولة دون توسع الأدرسة شمالا والأغلبة عربا. وهذا التمحور في حد ذاته كفيل بالكشف عن دور العامل الاستراتيجي في صياغة سياسة الأدرسة إزاء دول الخوارج.

على أن الفصل بين هذه الدوافع جميعا غير ذات موضوع؛ ذلك لأنّها تصافرت جميعا على صياغة أحداث الحقبة وتشكيل وقائعها. لذلك يمكن دمجها جميعا في مصطلح واحد هو «المعطيات الجيو- بوليتيكية».

في ضوء هذه المعطيات يمكن أن نفسر لماذا لم يتوسع الأدرسة على حساب الأغلبة أو أموي الأندلس؟ ولماذا توجه كل نشاطهم العسكري صوب مناطق ومنافذ وموانئ ومدن وطرق التجارة شرقا وغربا، شمالا وجنوبا^(٣) وأخيرا لماذا تم كل ذلك حساب دول الخوارج وحدها؟ ذلك ما نجيب عليه بالتفصيل في ثنايا العرض التالي.

(٢) نفسه: ص ٣٨٦.

(٣) راجع موريس لومبار: الذهب الإسلامي منذ القرن الثامن حتى القرن الحادي عشر، بيلادي ص ٦٢ وما بعدها، عصله من كتاب: «بحوث في التاريخ الاقتصادي» القاهرة ١٩٦١

(أ) العلاقات الإدارية - البورغوازية :

قامت دولة بورغوازية في سهول إقليم تامسنا بالمغرب الأقصى سنة ١٢٧هـ. استنادا إلى عصية من قبائل بورغوازية المصمودية ومذهب ديني هو المذهب الخارجي الصمري. ومن ثم تسقط دعاوي المؤرخين الذين شككوا في سبب العصية فردوه إلى اليهود وفي عقيدتها التي قالوا إنها ذات طابع هرطقي^(٤).

اتسمت سياسة الإدارة إزاء جيرانهم البورغوازيين بالعداء السافر. وقد وصل هذا العداء إلى حد اندلاع حروب بين الطرفين كان الطفر فيها للإدارة الأوائل والبورغوازيين الأواخر. ولا يرجع العداء إلى الاختلاف لمذهبي بقدر ما يرجع إلى أطماع الإدارة في مقدرات إقليم تامسنا الاقتصادية. تلك المقدرات التي جعلت بورغوازية - كما ذكر ابن حوقل^(٥) - «مستقلة نفسها عن الحاجة» فضلا عن شهرة إقليم تامسنا بالإنتاج الزراعي والحيواني الوفير وامتداد سواحلها على المحيط الأطلسي الذي أهل البورغوازيين لاحتراف الصيد البحري؛ تحكم موقع الدولة في الطريق الغربي إلى تجارة السودان؛ وهو طريق تارودانت. وإذا أضيف إلى ذلك الصلات الودية بين بورغوازية وبين أموي الأندلس أعداء الإدارة^(٦)؛ أدركنا الأسباب الموصوعة التي حفزت إلى اتسام العلاقات بين الإدارة والبورغوازيين بالعداء السافر. ولعل هذه الأسباب الاقتصادية كانت من وراء تعرض الدولة البورغوازية طوال تاريخها لأطماع القوى الخارجية. وهي حقيقة أكدها ابن خلدون^(٧) حين قال : «وكان لملوك العدوتين في غزو بورغوازية آثار عظيمة».

(٤) راجع : محمود اسماعيل : مغريات : ١٥ وما بعدها

(٥) صورة الأرض : ٨٣.

(٦) محمود اسماعيل : المرجع السابق : ٣٤ ، ٣٥.

(٧) لعر : ٦ - ٤٣٢.

ومن هنا تسقط دعاوي المؤرخين الذين فسروا حملات الأدارسة على دير بورغواطنة تفسيراً دينياً؛ تأسيساً على أن بورغواطنة «كانت على دين الصراية واليهودية والإسلام بها قليل»^(٨) وهو ادعاء يفنده اعتناق البورغواطيين الإسلام منذ فتح موسى بن نصير بلادهم. كذا اعتناقهم المذهب الخارجي الصمري منذ أوائل القرن الثاني الهجري.

كما تسقط أيضاً الدعاوي^(٩) القائلة بأن حملة إدريس الأول نجحت في صم إقليم تلمسان حيث تم «فتح معقلها وإسلام جميع أهلها». وقد فسر أحد المدرسين المحدثين^(١٠) هذا الادعاء بأن صاحبه - ابن أبي زرع - «أراد بإصغائه طبعاً دينياً على حملة إدريس الأول أن يمجده ويعظم أعماله».

والثابت أن هذه الحملة لم تحقق أغراضها نتيجة استئساد بورغواطنة في الدفاع عن استقلالها. وهذا يفسر لماذا أعاد إدريس الثاني الكرة حيث «دارت وقائع عظيمة»^(١١) لم تسفر كذلك عن سقوط دولة بورغواطنة. وهذا راجع أيضاً إلى ما عرف به الخوارج الصفرية من فروسية وبلاء في كافة حروبهم بالشرق والغرب على السواء^(١٢). هذا بالإضافة إلى ما كفلته الطبيعة الجغرافية من حماية لنديار بورغواطنة أهلّت دولتها لأن تعمر طويلاً على خلاف دول المغرب المستقرة المعاصرة التي سقطت على يد العاطميين أواخر القرن الثالث الهجري وأوائل القرن الرابع.

(٨) ابن أبي زرع : ٢٠

(٩) نفس المصدر والصحة

(١٠) راجع : سعد رعلول عبد الحميد : ٤١٩

(١١) ابن الخطيب : ٣ : ٣٢

(١٢) محمود اسماعيل - الخوارج - ٦٢ وما بعدها.

ومع ذلك أسفرت حملة إدريس الثاني عن نجاح محدود؛ إذ اضطعت مصر المدد الهامة - كنفيس - وفتحت للأدارة بابا للوصول إلى تجارة السودان كما نحتت في تحويل بعض قائل المصامدة من الولاء لبورغواطة إلى لسة للأدارة^(١٣).

وفي عهد محمد بن إدريس توجهت حملة كبرى نحتت بالمصر في تحقيق أغراضها؛ إذ أسفرت عن سقوط دولة بورغواطة إلى حين؛ على إثر معركة فاصلة دارت عام ٢٢٠هـ. مصداق ذلك حدوث فترة شغور في التاريخ البورغواطي استمرت قرابة خمسين عاما خضع إقليم تامسنا خلالها لولاية عيسى بن إدريس الذي حكمها باسم أخيه محمد في فاس^(١٤). ثم آل نفس الإقليم إلى إدارة عمر بن إدريس حين دب الشقاق بين الأخوين عيسى ومحمد وتدخل عمر في النزاع لصالح أخيه محمد ونجح في هزيمة عيسى فاستند إليه محمد حكم تامسنا مكافأة له على حسن صنيعه^(١٥).

لا أن البورغواطين استردوا دولتهم منتهزين ضعف الدولة الإدريسية بعد محمد بن إدريس. فتمكن أبو عفير البورغواطي من هزيمة الإدارة سنة ٢٧١هـ وأعاد إحياء الدولة البورغواطية التي حكمها آل بيته حتى سقطت في عصر الموحدين^(١٦).

وإذا اتخذ موقف الإدارة الأوائل في علاقاتهم مع بورغواطة طابع احموم ولاذت بورغواطة بالدفاع؛ فلم يلبث الحال أن تغير وأصبحت دولة الإدارة المحرأة هدفا لأطباع البورغواطين. ولا أدل على ذلك من أن أبي عمير نجح في

(١٣) إبراهيم لعبيدي البورغواطيون في المغرب - ص ٤٤، مراكش ١٩٨٣

(١٤) ابن خطيب : ٣ - ٢٠٥.

(١٥) ابن خلدون : ٤ : ٢٨

(١٦) محمود اسماعيل : مغربيات ١٥

توسيع نفوذه على حساب الإدارة وتمكن من توحيد المصممة وإحصاعهم لسلطانه^(١٧) فكثير من القبائل التي خضعت للإدارة إنان قوتهم تحول ولاؤها إلى بورغواطة بعد انهيار دولتهم. من هذه القبائل جراوة ورواعة ومططرة^(١٨) فصلا عن بعض بطون زفاته وغيرها^(١٩).

وبالمثل كان الحافظ الاقتصادي من وراء التوسع البورغواطي على حساب الإدارة؛ إذ نجح أبو عفير في الاستيلاء على بعض المواضع الضيقة بمعدن الفضة مثل بهت التي شهدت معركة ضارية بين البورغواطين والإدارة^(٢٠). وبديهي أن تعود القبائل في هذه المواضع إلى المذهب الخارجي الصفري الذي أرغمت على التخلي عنه إنان حقبة السيطرة الإدريسية^(٢١).

وعلى إثر الحملات الفاطمية على المغرب الأقصى وانسحاب الإدارة إلى الشمال حيث تقوقعوا في حجر النسر؛ عول البورغواطين على انتهاز الفرصة؛ فمدوا نفوذهم من بهت إلى تادلا وحيال فازاز بالإضافة إلى سهول تامسا. كما تحرشوا بمنطقة سبو متتهزين انسحاب الإدارة منها^(٢٢). وحسنا دليلا على ذلك ذكر أسماء القبائل التي خضعت لبورغواطة آنذاك وهي «بورغواطة وجراوة وزغاوة وزواغة والراس ومططرة وبنو يوزع وبنو دمر ومطماطة وبنو واكست وبنو تاسليت» وكلها عادت إلى اعتناق المذهب الصفري. أما القبائل التي والت

(١٧) ابن حوقل : ١٨٣ ، ١٤ ، Gautier Op Cit. P

(١٨) بن حمدون : ٦ : ٤٢٨

(١٩) الكري : ١٤١

(٢٠) عبد الكريم بيصمين : ٦١ .

(٢١) عمود اسماعيل : مغربيات : ٢٩

(٢٢) الكري : ١٤٠ ، ١٤١

بورغوصه ولم تدخل في مذهبها فهي «زناة الجمال ويوتليت ووت واسيب ووت
تسيت»^(٢٣)

على أن العداء السياسي بين الإدارة وبورغواطة لم يحل دور استمرار
العلاقات لتجارته بين فاس وشاله. وفي ذلك يقول اس حوقل^(٢٤) «وكان أهل
فاس ولصرة يفترونهم في بعض الأوقات ويسالمونهم ويحلون إليهم التحارات على
ما يرويه ولاتهم». ونعتقد أن اليهود لعبوا دورا أساسيا في إحكام الوشائج
الاقتصادية بين الإدارة وجيرانهم الخوارج وخاصة البورغواطين. وحق
لخوتيه^(٢٥) الحكم بأن يهود المغرب الأقصى أسهموا في تخفيف حدة الصراعات
السياسية والإثنية والطائفية التي شحرت بين الكيانات السياسية آنذاك.

هكذا اتسمت العلاقات الإدارية - البورغواطية بالعداء السافر الذي
ترجم إلى صراعات عسكرية دامية كان النصر فيها للإدارة أولا وللبورغواطين
أخيرا.

(ب) العلاقات الإدارية - المدرارية:

اتسمت العلاقات الإدارية - المدرارية بطابع العداء الذي اتخذ صورة
تدبير المؤامرات أولا ثم تحول إلى صراع عسكري أسفر عن توسع الإدارة على
حساب بني مدرار. ولا يرجع هذا العداء إلى الاختلاف المذهبي بين الإدارة
الزيدية والمدرارين الصفرية؛ بقدر ما تأصل نتيجة أسباب سياسية واقتصادية
واجتماعية.

(٢٣) عهون الاستصار : ٢٠٠

(٢٤) صورة الأرض : ٨٣

(٢٥) Les Siècles obscurs, P P 9-14

فسياسياً؛ صادق المدراريون أعداء الإدارة من بورغواطة وبي رستم وبي أمية بالأندلس. كما أن قيام دولة الإدارة بالمغرب الأقصى تم على حساب الخوارج الصفرية^(٢٦). ورغم جهود الإدارة في محو المذهب الصفرى ولقضاء على نفوذ القبائل التي اعتنقته كمديونة ومكناسة ومطرفة؛ طلت جماعات من الصفرية تقيم بدولة الإدارة وإن كان ولاؤها السياسي لبني مدرار. وحسن أنها كانت تدفع زكاة أموالها لشيوخ الصفرية في سجلماسة

فإذا أصيب إلى ذلك أطماع الإدارة في ذهب سجلماسة وفضة درعة؛ أدركنا الحافر الرئيسي على الصراع الإدريسي- المدراري. ذلك الصراع الذي أججه وحود قبائل من مغراوة وبي يفرن ومكناسة كانت تضرب في كل من الدولتين صاربة عرض الحائط بالحدود السياسية المائعة.

وقد نجح الإدارة في تجنيد بعضها ضد بي مدرار سواء في إثارة المشكلات داخل دولتهم أو إعراء بي حلدتها على الهجرة والإقامة بالدولة الإدريسية لذلك تسقط دعاوى بعض الدارسين^(٢٧) الذين وسموا العلاقات الإدريسية- المدرارية «بطابع المسألة وحسن الجوار». صحيح أن الصراع العسكري لم يسفر عن إسقاط أية من الدولتين للأخرى؛ لكنه تمحض عن اقتطاع أقاليم مدرارية جرى ضمها للدولة الإدريسية.

ويبدو أن الطبيعة الجغرافية حالت دون قضاء الإدارة الأقوياء على حيراهم الضعفاء إذ اعتصم المدراريون بواحتهم القصية في أقصى الصحراء واحتموا سلاسل الحمال الفاصلة بينهم وبين الإدارة^(٢٨). ومع ذلك وحدث

(٢٦) عمود إسماعيل الخوارج: ٤٢ وما بعدها.

(٢٧) انظر حسر عبد العواد دولة الإدارة ٢٥٣، رسالة ماحستير مخطوطة

(٢٨) عمود إسماعيل: الخوارج. ١٣٠.

مناطق مدرارية دون حماية طبيعية شهدت صراعا مريرا أسمر عن اقتطاع الأدارسة أقاليم ومدنا وحصونا مدرارية هامة.

وإد قمع الأدارسة هذه المكاسب، لم يجدوا غصاضة في استمرار التبادل التجاري بين فاس ومجلماسة؛ حيث كانت القوافل تروح حيث ودهانا بين الدولتين في أمان وسلام^(٢٩).

وإذا كان مؤرخا مثل جورج مارسيه^(٣٠) يرى أن سياسة الأدارسة استهدفت «استئصال شأفة صفرية سجلماسة»؛ فحق نخالفه الرأي بناء على أن المشروع الإدريسي السياسي التوسعي استهدف إفريقية ومها إلى مصر في المحل الأول.

وبالمثل ما كان من الممكن لدولة المدرارين في أقصى الصحراء أن تسقط الأدارسة الأقوياء. هذا فضلا عن أن جل نشاطهم انصرف بالدرجة الأولى إلى التجارة عبر الصحراء. وعلى ذلك يمكن القول أن الصراع الإدريسي - المدراري قمعور حول سياسة إدريسية هجومية توسعية قوبلت من جانب بني مدرار بالصمت التام حينما وتدبير المكائد ضدهم حيا آخر.

في ضوء هذه الرؤية يمكن استعراض أطوار العلاقات العدائية بين الطرفين.

دشن إدريس الأول علاقته بالمدرارين بإنفاذ حملة عسكرية للاستيلاء على تلمسان. ونلاحظ أن معظم رجالها كانوا من زناتة وبعض بطون مكناسة التي

(٢٩) س حوقل: ١٦٥، ابن أبي زرع ٥٣

(٣٠) La Berbère Musulmane p 124

تخلت عن مذهبها الصفري وخضعت للنموذج الإدريسي^(٣١). ولا يحلو ذلك من دلالة على دهاء إدريس؛ إذ استهدف قيام هذه القبائل بإعراء بني حلدتها في تلمسان وما حولها للانضمام إلى الدولة الإدريسية. وهذا يفسر لماذا لم يجد إدريس صعوبة في دخول المدينة دون قتال يذكر.

ولما كانت تلمسان وأحوازها مؤثلا للخوارج الصفرية منذ أسس أبو قرّة إمارة خارجية صفرية بها؛ فإن نجاح إدريس الأول في الاستيلاء عليها حرم المدراريين من طهير بشري هائل، فضلا عن مدينة ذات شهرة اقتصادية فائقة، بالإضافة إلى تشكيل إدريس خطرا محققا على التخموم الشمالية للدولة المدرارية.

ومع ذلك؛ لم يعدم المدراريون ولاء بعض سكان المدينة ممن رضخوا للحكم إدريس الأول قسرا. ومن ثم انهبلوا الفرصة فحرضوهم على الانتزاع بعد أن غادر إدريس تلمسان. وهذا يفسر لماذا جرد إدريس الثاني حملة أخرى تمكنت من استردادها والإيمان في الصفرية من سكانها سنة ١٩٧هـ ولعل في بقاء إدريس الثاني بتلمسان قرابة ثلاثة أعوام ما يفصح عن رغبته «في نحو آثار الصفرية بها»^(٣٢).

أما لماذا لم يهب المدراريون لاجل صنائعهم؛ فيرجع إلى استحالة إنفاذ حيوش من سحلماسة إلى تلمسان إلا عبر أراضي الدولة الإدريسية. إذ أن الطريق من سحلماسة إلى تلمسان يمر بمرعة وأغيات وتادلا وفاس^(٣٣) وكلها مدن تخضع للإدارة منذ عهد إدريس الأول.

(٣١) من حدود ١٢ ٤

(٣٢) نفسه ١٣

(٣٣) محمود إسماعيل، الخوارج، ١٣٧

وأصل الأدارة سياستهم في اقتطاع أطراف الدولة المردارية؛ خاصة ما تمتع منها بأهمية اقتصادية أو استراتيجية وساعد على ذلك ما جرى من سياسة المراكزية التي طفقها محمد بن إدريس حين أسند حكم الولايات لإخوانه إد تباري هؤلاء في توسيع مجال نفوذهم على حساب بني مدرار. وقد انفرد أبي يعقوب^(٣٤) بذكر معلومات ضافية وهامة في هذا الصدد؛ إذ عيى عن كتب محريات الصراع الإدريسي المرداري في تلك الأصقاع وأحرنا أن الأمير عبدالله بن إدريس - الذي استقل بأغيات ونفيس والسوس الأقصى - تمكن من اقتطاع بعض الحصون الهامة التابعة لبني مدرار وأن أخاه يحيى بن إدريس نجح في اقتطاع بلدة تامدلت - قرب درعة - وهدد مناجم الفضة في درعة نفسها^(٣٥) لكن انشغاله بالصراع مع إخوانه حال دون الاستيلاء عليها

وتمثل رد لمعل المرداري في تحريض الصفرية في دولة لأدارة صد عمر بن إدريس أمير فاس؛ مستهدفين كذلك تهديد مناجم الفضة بفازاز وأوزفور دخل دولة بني إدريس^(٣٦) لذلك كان المرداريون من وراء ابتراء عبد الرراق الصغري الذي تزعم جيشا من مكناسة ومديونة وعبائة توجه به إلى فاس، وبحج في الاستيلاء على عدوة الأندلسيين. لكن مقاومة سكان عدوة القرويين واستنحادهم بيحيى بن القاسم بن إدريس حال دون إتمام فتح الصفرية فاس وانتهت الثورة بالفشل ومقتل زعيمها عام ٢٩٣هـ.

وما يعيننا من أمر هذه الثورة هو قيامها بتحريض من بني مدرار. وهي حقيقة أكدها جورج مارسيه^(٣٧) حين لاحظ انطلاقها من مناطق التخوم المجاورة

(٣٤) السد. ٣٥٩: ليد. ١٨٩٣.

(٣٥) نفس المصدر والصفحة.

(٣٦) عبد الكريم بيصير: ٦١.

(٣٧) La Berberie Musulmane, p. 126.

لدولة المدرايين تم امتدادها شمالا إلى قاص.

ويدو أن المحاح النسبي لهذه الثورة شجع المدرايين على التفكير في عرو
دولة الأدارسة؛ خصوصا وأن اليسع بن مدرار أمير سجلماسة نجح في توطيد
أركان دولته بعد قصائه على الفتنة الداخلية. لذلك أعد حملة^(٣٨) هذا الغرض؛
لم يقدر لها مباحة سجلماسة نظرا لمباغته الخطر الفاطمي الذي أسقط الدولة
المدراوية نفسها سنة ٢٩٧هـ.

هكذا اتسمت العلاقات الإدريسية - المدراوية بطابع العداء الذي ترجم إلى
صراع عسكري كانت نتائجه في الغالب الأعم لصالح الأدارسة.

(ج) العلاقات الإدريسية - الرستمية:

ثمنا المصادر بمادة ضافية عن هذا الموضوع أكثر من تلك التي تتعلق
بعلاقات الأدارسة مع بورغواطة وبني مدرار. وهذا راجع إلى نجاة الكثير من
المخطوطات الإناصية من عث الغزو الفاطمي لتاهرت سنة ٢٩٧هـ.

قامت دولة بني رستم بالمغرب الأوسط سنة ١٦٢هـ. ورغم اتساعها
جغرافيا لتشمل المغربين الأدنى والأوسط إلا أن نفوذها في عالب الأحيان لم
يتجاوز تاهرت وأحوازها فصلا عن تبعية جبل نفوسة تبعية واهية وهذا يعني أن
معظم أراضي الدولة الرستمية كانت بوادي ارتبطت بتاهرت أو خروحت عليها
حسب قوة الأئمة الرستميين أو ضعفهم.

وما يعيبنا أن التخوم الشمالية الغربية للدولة بني رستم كانت مصاغة للدولة
الأدارسة وإذا كان عبد الرحمن بن رستم قد وطد نفوذه داخل هذا الإقليم عن

(٣٨) من الخطيب ٣ ١٤٥.

طريق مصاهرة سكانه من بني يفرن الرناتيين^(٣٩) فقد تعرض هذا النفوذ للاستيلاء في عهود حلفائه ليستبدل بنفوذ الأدارسة وغدى الإقليم مثار نزاع بين الطرفين إلى أن تأكد ضمه للأدارسة في عهد إدريس الثاني.

ونستطيع أن نؤكد طابع العداء بين الأدارسة والرسّامين استناداً إلى هذا النزاع ومن ثم لا سبيل لتصديق القائلين^(٤٠) بأن العلاقة بين تاهرت وفاس قامت على أساس «المسألة والتعايش وحسن الحوار».

يضاف إلى ذلك مشكلات أخرى أوجبت الصراع بين الطرفين؛ منها الاختلاف المذهبي بين العلويين الزيدية والخوارج الإباضية حيث تدثر الصراع بين الطرفين بعطاء المذهبية التي عكست صراعاً أعمق إقتصادياً وسياسياً وجتماعياً. إذ عاشت طوائف إباضية داخل دولة الأدارسة كما عاشت طوائف زيدية واعتزالية داخل الدولة الرسّمية عولت على دفع ركاة أموالها لشيوخ طوائفها في الدولة الأخرى. كما قامت بدور سياسي مناهض ضد حكام الدولة التي عاشت في كنفها لصالح الدولة الأخرى. وود كل منها لو هاجر إلى الدولة الأخرى للعيش في كنف أئمتها الذين كانوا على مذهبها^(٤١).

من هذه المشكلات أيضاً أن أقليات عنصرية وقبلية عاشت في كل من الدولتين وكان ولاؤها متذبذبا، فتارة توالي الرسّامين وأخرى تشيع الأدارسة. وفي الحالتين معاً شكلت حجرة عثرة أمام سيطر نفوذ «المحزن» على سائر عناصر لسكان داخل حدود الدولة. فمعلوم أن عناصر فارسية عاشت في فاس^(٤٢) منذ

(٣٩) أبو ركريب - لبره وأحار الأئمة، ورقة ١٤، مخطوط بدار الكتب المصرية

(٤٠) حسن عبد العواد: المرجع السابق، ص ٢٤٥.

(٤١) محمود إسماعيل، الخوارج، ١٦٠، ١٦١

(٤٢) ذكر ابن أبي ررغ أن هذه العناصر الفارسية أسهمت في بناء مدينة فاس التي عرفت بذلك

تأسيسها، كما وفدت عناصر أخرى فارسية من إفريقية الأغلبية على إثر الصراع الشعبي بها^(٤٣). وقد شكلت هذه العناصر «طابورا حامسا» لبي رستم الفرس كما صرحت قبائل من بربر هواره وذناتة في دولة بني إدريس كست على المذهب الإباضي ثم أرغمت على التخلي عنه. لكنها لم تعثا تتصل بأئمة تهرت الإباضية لتحريرهم من سطوة الإدارة.

وبالمثل وجد في دولة بني رستم بطون من بعض قبائل البربر التي ضربت قبائلها الأصلية في الدولة الإدريسية، وكانت هذه البطون تسمى للانضمام لقبائلها الأصلية في الدولة الإدريسية^(٤٤). ولم تأل جهدا في إثارة المتاعب ضد بني رستم لصالح الإدارة.

كما أن قبائل البر من البدو الرعاة لم تجد حرجا في اقتحام الحدود «المائعة» بين الدولتين، الأمر الذي أثار النزاع بين الإدارة والرستميين من أجل إقرار سلطتهم عليها.

فإذا أضيف إلى ذلك كله صلات الرستميين الودية بأموي الأندلس أعداء الإدارة؛ أدركنا أن الصراع بين الطرفين كان قدرا محتوما.

والملاحظ أن كفة الإدارة كانت أرحح في هذا الصراع رغم اتساع دولة بني رستم. ويرجع ذلك إلى أن تاريخ الرستميين كان سلسلة متصلة من الانشقاقات المذهبية والحروب الأهلية القبلية والمصرية، فضلا عن الصراع حول

باسم «مدينة الفرس» ثم حومت إلى «فاس»

راجع: «الفرطاس» ص ٤٥.

(٤٣) «اسومي» الدور السبعة: ٦٢

(٤٤) «بو زكريا» ٣٦

الإمامة بين أفراد الأسرة الحاكمة^(٤٥). وهذا يفسر لماذا أمسك الأدارسة دأئها برمام المبادرة، ولماذا اتهم المؤرخون^(٤٦) بني رستم بالموادعة والاستكانة والخذلان في ضوء هذه الاعتبارات يمكن رصد أطوار الصراع الإدريسي - الرستمي الذي انتهى لصالح الأدارسة.

بدأ العداء بين الطرفين على إثر قيام دولة الأدارسة سنة ١٧٢هـ. إذ أُرغم الإباضية من قبائل زناتة وهوارة وزواغة ولماية ونمرة على مبايعة إدريس الأول قسراً^(٤٧). كما أن إدريس أُنْخِص في إباضية أسافل شلف حين توجه إلى تلمسان سنة ١٧٣هـ^(٤٨). بل إن استيلاءه على تلمسان ذات الشهرة التجارية والاستراتيجية والكثافة البشرية تم على حساب نفوذ الرستميين والمدراريس^(٤٩).

وتمثل رد الفعل الرستمي في تجريد الإمام عبدالوهاب بن عبدالرحمن حملة لاسترداد هذا النفوذ المفقود؛ لكنه عاد أدراجه بعد أن خشي مغنة اقتحام تلمسان. ولم يكن بوسعهم إلا إعمال الحيلة في الكيد لخصومه. لذلك رحب بمقدم سليمان بن عبدالله - الذي شحّر نزاع بينه وبين المولى راشد عقب وفاة إدريس - بغية إحداث صدع في دولة الأدارسة^(٥٠). كما أوعز إلى إباضية تلمسان بالانزواء؛ لكنهم لم ينعموا طويلاً بالانفصال عن الأدارسة. إذ جرد عليهم إدريس الثاني

(٤٥) محمود إساعيل: الخوارج: ١٥٤ وما بعدها.

(٤٦) «مطر» Gautier Op. Cit p 295

(٤٧) ابن حلدون: ٤، ١٢، Gautier: Op. Cit p. 274.

(٤٨) ابن أبي ررغ: ٢٣

(٤٩) يعقوبي: ٨٠، السكري: ٧٦

(٥٠) السكري: ٧٧، ابن حلدون: ٤: ١٧

حملة أثحت فيهم قتلا، وأرغم من بقي منهم على هيد الحياة على التحلي عن المذهب الإباضي^(٥١).

وعبثا حاول هؤلاء طلب النجدة من الرستميين؛ لذلك اضطروا للاعتراف بطاعة الأدرسة، بل حاولوا إغراء بني رستم بأن يخلوا حذوهم.

وبطرا لاشعال الإمام عبدالوهاب الرستمي بمواجهة خطر الانشقاقات المذهبية في تاهرت وحركات الانفصال في جبل نفوسة^(٥٢)؛ لم يتمكن من تصحيح الأوضاع في تخوم دولته. واكتفى بإنقاذ جند من نفوسة لشس إغارات متفرقة على تلمسان.

واشتم إدريس الثاني من غريمه عبدالوهاب بتحريض طوائف المعتزلة والزيدية لثورة عليه. وبالفعل تجمع ثلاثون ألف معتزلي من هوارة وزناتة حول تاهرت فضلا عن معتزلة أيزرج^(٥٣) وغيرها من الجيوب لاعتزالية التي عاشت شه مستغنة في المغرب الأوسط^(٥٤). هذا بالإضافة إلى جماعات من العلويين الزيدية. وفي ذلك يقول أبو زكريا «تكاثفت كلمتهم واجتمعوا من كل نقب وجاءو من كل أوب وأظهروا محالفة الإمام».

دارت معارك كلامية وعسكرية كان الطفر فيها للشوار. ولم يستطع عبد الوهاب الرستمي فك الحصار حول تاهرت إلا بعد وصول إمدادات من جبل

(٥١) ٨٧ (٥١) Mercier Histoire de l'Afrique septentrionale Vol I Paris 1888

(٥٢) الشياخي، السير، ١٩٨، القاهرة ؟

(٥٣) ليعقوبي، ٨٠

(٥٤) أطبق أحمد الدارسي على تلك الجماعات مصطلح «إقطاعات الأسياد» انظر محمد الطائي ٣٨٥، ٣٨٤

(٥٥) اسيرة وأحجار الأئمة: ٢٩.

نفوسة^(٥٦) وبرغم هزيمة الثوار وهرب من هرب منهم إلى دولة الأدارسة؛ ما فتئوا يعدون لعدة محاولة أخرى. وقد لاحت الفرصة في أواخر سني الدولة الرستمية حيث تكاثروا مع الطوائف الأخرى «لتبييت خبر الإباضية»^(٥٧)

وفي كل الأحوال كان الأدارسة ضالعين في إثارة هذه الجماعات ضد بني رستم كذلك لا شك في تخريض الأدارسة بربر هوارة الصاربيين في الدولة الرستمية ضد أئمتها؛ خصوصا وأن مواطنهم الأصلية كانت في دولة الأدارسة^(٥٨). مصداق ذلك أنه بعد أن سحق الرستميون تمردهم هربوا إلى حل ينجان بالدولة الإدريسية وطفقوا يعدون العدة للثأر. حتى إذا عم الاضطراب تاهرت من جراء صراع العصيات، نجحوا في اقتحامها سنة ٢٦٠ هـ وتولى رعيمهم محمد بن مسالة السلطة ستة أعوام؛ إلى أن طردوا عن يد الإمام الرستمي أبي اليقطان محمد بعد استعانته بقائل البربر الأخرى وخاصة نفوسة^(٥٩).

ما كان توسع الرستميين الأواخر الرد على تلك المؤامرات الإدريسية رغم خطورتها، وهو أمر ينفي ما ذهب إليه جوتيه^(٦٠) بأن الرستميين دأبوا في الرد على مبادرات بني إدريس العدائية. وبالمثل لا يمكن تصديق مقولته بأن إدريس الثاني أسس مدينة فاس حصيصا حتى يتحاشى مؤامرات بني رستم. إذ نعلم أن

(٥٦) محمود إسماعيل: الخوارج، ١٦١

(٥٧) Motylinski. chronique d'Ibn Saghir sur les Imams Rostimides de Tahart Actes du

14 Congres internationales des Orientalistes Alger, 1905 Vol 3 Part 2, p 51

(٥٨) محمود إسماعيل: الخوارج: ١٩٧.

(٥٩) نفسه. ١٩٩

(٦٠) Les Siecles obscur p 290

إدريس الأول هو الذي أسس المدينة، وأن إدريس الثاني زاد في عمرها وانتقل إليها ليتحرر من هيمنة أوربة.

وبرغم ما آلت إليه دولة الأدارسة من ضعف وانحيار في العقد الثالث من القرن الثالث الهجري؛ لم يتمكن الرستميون من استرداد أراضيهم التي اقتطعها الأدارسة في أحواز تلمسان. وهذا ينفي ما ذهب إليه فوريل^(٦١) من نجاح الرستميين في استرداد تلمسان ذاتها. إذ نعلم أن تلمسان وما حوها طبت في حوزة آل سليمان، وشكلت «إمارة حاضرة» بين بني رستم وبني إدريس. وهذا يفسر بالمثل لماذا لم يقدم الأدارسة بدورهم على غزو تاهرت رغم تردي أحوالها حول ذلك التاريخ^(٦٢) إن ضعف الدولتين معا حال دون إقدام إحدهما على غزو الأخرى.

وقد انتهز آل سليمان تلك الفرصة لتوسيع نفوذهم على حساب بني رستم؛ فجحوا في شن إغارات على قلاعهم وحصونهم وموابيهم على البحر المتوسط أسفرت عن استيلائهم على بعض هذه المدن مثل مدينة الخضراء، وسوق إبراهيم وغيرها^(٦٣)؛ بعد أن نكلوا بسكانها من الإياضية. وبرغم احتفاظ بني رستم ببعض المدن الساحلية الأخرى - كمرسى الدجاج ومرسى فروخ - إلا أن أخطار السليمانيين ما لبثت أن هددت النشاط التجاري بينها وبين الأندلس^(٦٤).

(٦١) Les Berbers, Vol. 2, p. 13.

(٦٢) عمود إسماعيل، القوارح ١٧٠ وما بعدها

(٦٣) اسعوي: ٣٥٢، ٣٥٣

(٦٤) أخطأ فدر هيدن حين ذهب إلى أن آل سليمان استولوا على كافة الموانئ والمدن الرسمة على

ساحل البحر المتوسط؛ حتى لاصقت حدود إمارتهم إفريقية الأعلى أنظر: La Berbère Orientale

tae p 247

ونجم عن استكانة الرستميين إزاء آل سليمان تحلي الكثيرون من الربر
الإماضية عن مذهبهم واعتناقهم المذهب الزيدي^(٦٥). ولقد لعب هؤلاء دورا
باررا في تدبير المكائد ضد الرستميين في تاهرت لصالح آل سليمان والأدارة.
وليس أدل على تعاظم نفوذهم من إرغامهم أئمة الرستميين الأواخر على الخطبة
باسم علي بن أبي طالب في مساجد تاهرت^(٦٦). كما أن دعوتهم «للعدل
والتوحيد» أعزت عوام المدينة بالانضمام إليهم. ووصل نفوذ هؤلاء العوام إلى حد
التحكم في تنصيب الأئمة الرستميين وعزلهم^(٦٧).

مهدت هذه الظروف لإقدام بعض أمراء الإدارة - مثل أبي العيثر
عيسى بن إدريس حاكم جراوة وأحمد بن القاسم بن إدريس حاكم كرت^(٦٨) - على
الاتصال بزعماء عوام تاهرت لتدبير ثورة ضد الإمام الرستمي أبي حاتم يوسف.
ولم فشلت الثورة هرب زعمائها لائذين بآل سليمان والأدارة^(٦٩).

على أن العداء السياسي بين الإدارة وبنو رستم لم يحل دون استمرار
العلاقات التجارية بينهما^(٧٠) ويخيل إلينا أن العلاقات الاقتصادية بين الإدارة
وسائر دول الخوارج في المغرب خففت إلى حد كبير من غلواء الصراع السياسي.

(٦٥) محمد الطالبي: ٦٢٥.

(٦٦) ابن الصغير: ٤٢.

(٦٧) محمود إسماعيل: الخوارج: ١٧٧.

(٦٨) شاركت بعض الرعامات العلوية غير الإدريسية هذين الأميرين من بني إدريس في التآمر مع عوام
تاهرت ضد أئمتهم من بني رستم. وقد أورد اليعقوبي أماكن هذه التجمعات العلوية، فذكر أنها
تمركزت في هاز ورورة وسهل متيجة ومليانة والخضراء وسوق إبراهيم ومالطة وصبرة وحراية.
مظر: البلدان: ٣٥٣.

(٦٩) محمود إسماعيل: الخوارج: ١٩٩.

وكان الشاعر بكر بن حماد الزماني - أح دعيم عوام تاهرت محمد بن حماد - صمن الذين اشتركوا
في تدبير المؤامرة.

(٧٠) اس حوقل: ٢٩٥، ابن حلقون: ٦: ٤٦١.

وفي ضوء ذلك يمكن تفسير عدم حدوث تغييرات ذات بال في خريطة المغرب السياسية خلال القرن الثالث الهجري. ويبدو أيضا أن صيغة «التوازن» التي حكمت العلاقات بين سائر دول الغرب الإسلامي آنذاك كانت نتيجة حرص كافة لقوى على الاستفادة من النشاط الاقتصادي المزدهر وقد ظلت تلك الصيغة قائمة حتى ظهور الماطميين الذين دشّنوا بداية عصر جديد في تاريخ الغرب الإسلامي.

صفوة القول - أن سياسة الإدارة إزاء دول الخوارج في المغرب اتسمت بطابع العداء الذي ترحم إلى صراعات عسكرية مريرة؛ لكنها لم تسفر عن لإطاحة بأي من هذه القوى؛ نظرا لفعالية الحافز الاقتصادي في صياغة تاريخ العلاقات السياسية آنذاك

الفصل الثالث

سياسة الإدارة إزاء أمويي الأندلس والفاطميين

ننوه في مستهل هذا الفصل بأننا سنتبع العلاقات الإدريسية - الأندلسية إبان عصر الإمارة الذي يبدأ بإحياء عبدالرحمن بن معاوية - المعروف بالداخل - الحكم الأموي في الأندلس عام ١٣٨هـ وينتهي بإعلان عبدالرحمن الناصر الخلافة عام ٣١٦هـ.

أما عن العلاقات الإدريسية - الأندلسية إبان عصر الخلافة الأموية؛ فسوف نتبعها في البحث الأخير من خلال تبيان موقف الإدارة من الصراع الفاطمي - الأندلسي بالمغرب الأقصى؛ حيث تتداخل الأحداث وتختلط وتتغير المواقف بتنوع معطيات وماجريات هذا الصراع.

هذا بالإضافة إلى أن الدولة الإدريسية قد عثرت وتشرذمت وتباينت مواقف أمراء نواحيها إزاء بعضهم البعض، وبالمثل إزاء قطبي الصراع في المهدية وقرطبة؛ بحيث يستحيل تحديد موقف واحد وثابت للإدارة إزاء الخصمين معا فضلاً عن القوى المحلية التي دارت في فلكها.

وننوه أيضاً بأننا سنفق على انبهار وتداعي ثم سقوط الإدارة من خلال عرضنا في الفصل التالي؛ بحيث لا تدعو الحاجة إلى أفراد بحث مستقل في هذا الصدد

أ- علاقات الإدارة بأموي الأندلس في عصر الإمارة:

نعلم أن بني العباس أسقطوا الخلافة الأموية عام ١٣٢هـ ونعلم أيضاً أن أحد أفراد البيت الأموي وهو عبدالرحمن الداخل استطاع النجاة من المذابح لعدسية في الشرق وهرب إلى المغرب. ثم انتهاز فرصة اضطراب الأندلس من جراء «الحرب الأهلية» وتمكن من اعتلاء الحكم في قرطبة عام ٣١٨هـ؛ ليسهل عصره اصطلاح المؤرخين على تسميته بعصر الإمارة. ذلك أن عبدالرحمن وخلفاءه تلقبو بلقب «الأمير» ولم يجرؤا على اتخاذ لقب الخلافة إلا في عهد عبدالرحمن لثالث المعروف بالناصر.

وقد اتسمت علاقات الإدارة بأمراء قرطبة الأمويين بالطابع العدائي. ويذهب بروفنسال^(١) إلى أن هذا العداء موروث عن الصراع المعروف بين علي ومعاوية، فضلاً عن العداء المتأصل بين الأمويين والعلويين؛ نظراً لما حل بالشيعة من عن على أيدي خلفاء بني أمية. لكننا نرى أن العلاقات الدولية لا تصاغ على أساس الاختلاف المذهبي والثارات القديمة. وحسبنا أن زعماء الريدية في لشرق لم يمانعوا في انضمام أتباع الأمويين إليهم حين ثاروا ضد بني العباس^(٢).

ويمكن الوقوف على أسباب العداء بين أمراء قرطبة؛ إذا ما أدركنا صحة قاعدتين هامتين حكمتا العلاقات بين الطرفين وهما:

أولاً. استناد العلاقات الدولية في الغرب الإسلامي آنذاك إلى قاعدة «توازن القوى» والاعتراف بسياسة «الأمر الواقع». فلم يحدث قط أن حاولت أو استطاعت أي من هذه القوى أن تسقط الأخرى وهذا راجع إلى عقد ائتلافات

(١) ابنر Histoire de l'Espagne Musulmane Vol 1 Alger 1944 p 173

(٢) نظره: الفصل الأول من الكتاب الأول

وتحالفات سياسية حافظت على صيغة «التوازن» تلك. شهد العرب الإسلامي آنذاك محورين أساسيين؛ المحور العباسي - الأغلبي وهو معاد لكافة دول الغرب الإسلامي التي كانت «إمارات امتيلاء» قامت رغم أبف العباسيين وتلحّصت عاية هذا المحور في الحؤول دون تسرب نفوذ أي من هذه الإمارات نحو الشرق.

وصم المحور الثاني أمويو الأندلس ودول الخوارج الثلاث في المغرب فصلا عن إمارة الحميريين بنكور وقد استهدف بالمثل الخيلولة دون تسرب العباسيين والأغلبة نحو المغرب. وهنا يصدق قول حوتيه^(٣) أن «صيغة التوازن حكمت منظومة الأحداث في الغرب الإسلامي حتى اختلت بعد ظهور الفواطم».

أما الأدرسة؛ فلم يندرجوا في سلك أي من هذين المحورين واحتفظوا سياسة مستقلة. ونعتقد أن هذا الموقف راجع إلى مخططهم التوسعي صوب الشرق؛ الأمر الذي أدى إلى اصطدامهم بكافة القوى المجاورة فضلاً عن العباسيين. وبرغم هذا النهج الإدريسي الذي استحلب عليهم عداوة كافة دول الغرب الإسلامي؛ ظلت صيغة «التوازن» قائمة. إذا أثنت الأحداث عجزهم عن تنفيذ مخططهم التوسعي الطموح. كما كفلت هذه الصيغة بقاء دولة الأدرسة واستمرارها بطريق غير مباشر إذ لم يكن بوسع الأغلبة ولا العباسيين القضاء عليها إلا على أنقاض دول الخوارج المجاورة والمعادية للثالث العباسي الأغلبي والإدريسي. وبالمثل لم يتطلع أمويو الأندلس للقضاء على دولة الأدرسة - برغم العداء - لأنها شكلت «دولة حاجزة» بينهم وبين الأغلبة أفصال بني العباس ومفذي سياساتهم في الغرب الإسلامي. ولم يكن بوسع الأدرسة كذلك غزو الأندلس نظراً لأن إمارة الحميريين بنكور - الموالية لقرطبة - شكلت بالمثل إمارة

Les siecles obscurs. p 413 (٣)

حاجزة بين أمراء فاس وأمراء قرطبة. وهذا يفسر أخيراً لماذا ظلت خريطة العرب الإسلامي السياسية دون تعديل أو تغيير يذكر. ولماذا ظلت «الأوضاع الراهنة» - «Status-quo» - تمرص وجودها على سائر القوى برغم سياسة تكوين المحاور السياسية.

ثانياً: مما راد في إقرار صيغة التوازن وبقاء سياسة الاعتراف بالأمر الواقع؛ حرص كافة القوى على الإفادة من النشاط التجاري المزدهر الذي شهده العالم الإسلامي بأسره في ذلك الحين. ومن هنا تبرز أهمية الأوضاع الاقتصادية في صياغة العلاقات الدولية. فعلم أن الغرب الإسلامي - على نحو خاص - شهد نهضة زراعية ورعوية وصناعية وتجارية بعد أن استقل عن الخلافة الشرقية. وكان من صالحي كافة قواه الإفادة من هذا الرخاء عن طريق التبادل التجاري؛ وذلك بتأمين الطريق التجاري بين الشرق والغرب، وبين الشمال والجنوب. وقد كشف موريس^(٤) لومبار عن أهمية ذهب السودان ورقيقه بالنسبة لدول الغرب الإسلامي خصوصاً والعالم الإسلامي بوجه عام بما يغني عن البيان. ويرى أن ما شجر من صراعات في الغرب الإسلامي إنما كانت من جراء التنافس بين دوله حول الطرق والمنازل والمدن والموانئ ذات الصلة بتجارة الشرق - الغرب والشمال - الجنوب. ويعتقد أن هذه الصراعات لم تصل إلى حد القطيعة بحيث خففت المصالح الاقتصادية المشتركة من علواء المذهبية والإثنية والتناحر السياسي والعسكري.

في ضوء هذين العاملين يمكن تحديد أسباب العداء الإداريسي - الأموي والوقوف على مظاهره ووسائله ومعرفة أهدافه وغاياته.

(٤) الذهب الإسلامي منذ القرن الثامن حتى القرن الحادي عشر الميلادي. ٦٤ وما بعدها

أما عن الأسباب؛ فترجع - بالدرجة الأولى - إلى كون دولة الأدارسة تمثل أخطر القوى المغربية على الأندلس خصوصاً بعد أن توسعت على حساب دول الخوارج وتحكمت في مقدرات اقتصادية وطاقات بشرية متعاظمة. وهذا يفسر لماذا وطدت قرطبة صلاتها بالدول المجاورة للأدارسة. ويفسر أيضاً حكم أحد الباحثين^(٥) بأن «أموي الأندلسي عملوا على إفساد أي مخطط شيعي بالمغرب الأقصى»، وحكم آخر^(٦) بأنهم «أولوا أمور العدو اهتماماً كبيراً رغم مشاكلهم الداخلية». ونرى أن هذا الاهتمام لم يقتصر فحسب على الجوانب السياسية، بل اسحب إلى النواحي الاقتصادية؛ إذ حرص أموي الأندلس على أن تظل أسواق المغرب الأقصى والأوسط مفتوحة أمام بضائعهم فضلاً عن الفوز بصيب من تجارة السودان.

لم يكن الأدارسة - بالمثل - بمنأى عن البد الطولي لحكام قرطبة؛ لذلك عملوا لهم ألف حساب خاصة بعد سيطرة أساطيلهم على القطاع الغربي من البحر المتوسط فصلاً عن شواطئ المحيط الأطلسي

يضاف إلى ذلك وجود قبائل من البربر بالأندلس كانت أصولها تضرب في دولة الأدارسة، كذا وجود عناصر أندلسية تعيش في كنف الدولة الإدريسية، وظفها الطرفان في الكيد والفساد ضد بعضهما البعض؛ الأمر الذي زاد في العداء بينهما.

أما عن مظاهر العداء، فلم يكن بينها المواجهة العسكرية بطبيعة الحال؛ حتى تخيل بروفيسال^(٧) أن العلاقات بين فاس وقرطبة كانت ودية إنما اقتصر

(٥) لسيد عبد العزيز سالم المغرب الكبير ٢: ٥٦٩، الاسكندرية ١٩٦٦

(٦) محمد لطفي: ٤١٣.

(٧) Histoire de l'Espagne Musulmane, Vol 1, p 247

هذه المظهر على حيك المؤامرات والمكائد والتجسس وشجع المنبرس؛ وهو م
سيظهر بوضوح من خلال العرض.

لعل أول إشارة في المصادر عن علاقات فاس بقرطبة ما ذكره ابن
الخطيب^(٨) وابن عداري^(٩) عن تشجيع الأدارسة الثوار على أمراء قرطبة؛ إذ ذهبوا
إلى أن عبدالله اللانسي وأخاه سليمان تواطأ مع إدريس الأول للثورة على أخيهما
الحكم بن هشام الذي انفرد بالسلطة في قرطبة. لذلك أقاما ردحا في دولة
الأدارسة بعدان العدة حتى أمدهما إدريس الأول بجند من العدو فغادرها إلى
الأندلس؛ الأول في عام ١٨٠هـ والثاني في عام ١٨٢هـ. ويخطيء بعض
الدارسين^(١٠) الذي ذهبوا إلى أن إبراهيم بن الأعلب أمير إفريقية هو الذي
ساعدهما للإطاحة بـ ابن أخيهما. وليس أدل على هذا الخطأ من أن إبراهيم لم يكن
قد تولى بعد إمرة إفريقية؛ إذ الثابت أن ولايته تمت عام ١٨٤هـ.

وإذا كما لا شك في أن إدريس الأول هو الذي ساعد الثائرين؛ فمن
لمحقق خطأ الزعم^(١١) بأن الحكم بن هشام أوفد سفارة إلى فاس لتهنئة إدريس
الثاني عقب تقده الحكم. والأكثر غرابة القول بأن هذه السفارة أرمعت عقد
تحالف مع إدريس الثاني ضد العباسيين والأغالبة. والأقرب للمنطق أن يتخوف
الحكم بن هشام من خطر إدريس الثاني بعد تقاطر وفود من إفريقية والأندلس
من العرب والبربر لمنايعة والعيش في كنف دولته^(١٢). يصر ذلك ما أقدم عليه

(٨) إعمال الأعلام: ١١-٣

(٩) البيان المغرب: ٢: ٩٤.

(١٠) انظر عبدالله عان دولة الإسلام في الأندلس، ٢٣١، القاهرة ١٩٦٩.

Conde History of the domemion of the Arabs in Spain, Vol 1, London, p 247

(١١) Scott History of the Moorish empire in Europe Vol 1, London, 1904, p. 456

(١٢) محمد عبدالله عان: ٢٤١.

من استدعاء جيشه الذي كان يقاتل الفرنجة في الشجر الأعلى نتيحة استحبال
خطر إدريس بأرض العدو^(١٣).

وليس أدل على طابع العداء بين العاهلين من ترحيب إدريس الثاني
بالتأثيرين على الحكم من أهل الرض وتخصيص عدوة الأندلسيين بفاس
لسكاهم وقد استهدف إدريس من ذلك عدة غايات؛ الأولى: الإفادة من حيرة
هؤلاء المهاجرين في أمور العمران بدولته خاصة وأن معظمهم كانوا من الحرفيين
والصناع المهرة^(١٤)، والثانية؛ الاستعانة بهم لموازنة نفوذ البربر في دولته والتحرر
من نفوذ قبيلة أوربة على نحو خاص. والثالثة: توظيفهم في تدبير وتسييد المكائد
ضد خصمه جريا على سياسة الإدارة الشائعة في هذا الصدد^(١٥). ولذات
لدوافع لم يتقاعس إدريس الثاني وحلفاؤه عن الترحيب بمزيد من الهجرات
الأندلسية - نتيحة القحط - وإسكاهم فاس وأصيلا والبصرة^(١٦).

وقد تجلت سياسة الإدارة في الكيد لاموي الأندلس حينما ناصرُوا الثائر
عمر بن حفصون، إذ نعلم أنه اتصل بادیء الأمر بالأغالية لمساعدته على أن
تكون ثورته على أمراء قرطبة باسم العباسيين. فلما تقاعسوا عن نصرته^(١٧) لجأ
إلى الأمير الإدريسي إبراهيم بن القاسم صاحب البصرة وطلب منه المؤازرة على
أن يقيم الخطة باسمه^(١٨) يؤكد ذلك ما ذكره ابن عذارى^(١٩) من أن

(١٣) ص ٢٤٢.

(١٤) عبد الكريم يصمى: ٩٠.

(١٥) مجهول سد ترويجية من أحبار البربر في القرون الوسطى، ص ٤٢٣، الرماط ١٩٣٩.

(١٦) ابن حبان المتفحص من أحبار أهل الأندلس، تحقيق د محمود مكي، بيروت ١٩٧٣،
ص ٢٦٦، الكري: ١٠٩، ١١٠.

(١٧) راجع، محمود إسماعيل: الأغالة ١٢٩، ١٣٠.

(١٨) محمد الطاسي: ٤١٤.

(١٩) البيان المغرب: ٢: ٢٣٣.

«مراسلات ومكاتبات جرت بينهما في هذا النفاق». وفي ذلك يقول أحد الدارسين^(٢٠) «تفاقم خطر عمر بن حفصون لأن الأدارسة أيذوه ماديا ومعنويا؛ حصة وأن أطماع هذا الفرع من البيت الإدريسي كانت طموحة لرعاية المغرب الأقصى في ظل المذهب الشيعي الريدي». ونجد مصداق ذلك في أشعار عمرت عن إحياء المشروع الإدريسي في تأسيس دولة زيدية بالشرق^(٢١)

أما عن موقف أمراء قرطبة إزاء هذا التآمر؛ فيمكن الوقوف عليه من خلال إحصائياتهم وشائج علاقات وطيدة مع الدول المجاورة للأدارسة بهدف تطويقها والحد من دور تطلعاتها لتهديد الأندلس من ناحية، وتهديد مصاحبتهم الاقتصادية بعدم الاتجار مع أمير البصرة من ناحية أخرى.

ويكشف نص هام لابن حيان عن حقائق جد هامة في هذا الصدد من المفيد إسناته يقول ابن حيان^(٢٢) «قال عيسى بن أحمد الرازي صاحب التاريخ: كن الأمير محمد بن عبد الرحمن شديد التهمم بحرب الساحل والعدوة، مرعيا لما هنالك من أضرار أعدائه، محتولا عنهم لكثير ممن يتصرف عليهم من ملوك المرابطين الملقين إليه بالولاية؛ كبي مدرار ملوك سجلماسة ومحمد بن أفلح بن رستم أمير تاهرت وغيرهم»

(٢٠) عبد الكريم يصمى: ١٩٤.

(٢١) عمر أحمد اشعراء عن هذه الظواهرات في أشعار نهجو القاسم بن إدريس، جاء به
قل لسننسيم ونسيم طسجة عنى بها لا يحمدنك في بلادك حاسد
مننت نفسك أن تكون خليفة هيهات هذا من حديث بارد
انظر النكري: ١٢٢

وتظهر هذه الظواهرات في أشعار للقاسم بن إدريس، حيث يقول
مأسرول للراغب العرب بها وإن كنت في الغرب قسدا وسدا
وأسموا إلى الشرق في همة يمدتها رقبيا من أحب
(٢٢) عيسى بن حفصون مكي، ص ٢٦٥

وفي موضع آخر يقول^(٢٣) : «كان لخلافة الأمير محمد بن عبدالرحمن بصرة ولأيامه زهوة ولسلطانه جلالة سرت أخبارها إلى المشرق. اعتقد له من أحله كثير من الملوك بالعدوة الولاية وألقوا إليه بالمودة... وكان أكفلهم بما لديه من أملاك أهل العدوة بنو مدرار ملوك سحلماسة وبنو أفلح بن عبد الوهاب المرستمي أمراء تاهرت وغيرهم».

وفي موضع ثالث يقول^(٢٤) ابن حيان: «كان الأمير محمد كثير المواصلة لملوك العدوة، حريصا على استئلافهم، مواليا لمراسلتهم، مواظبا لمناحتهم... يقول لوزرائه كثيرا وخدمته. استدعو مؤالفتهم بلطيف المحاطبة... ويأمر صاحب العمل دأبا أن يزيدهم في قيم ما يهديه كبارهم ويحمله تجارهم من بلادهم، غبطا لهم بمعاملته».

يفهم من النصين الأول والثاني الهدف السياسي عن عقد أمير قرطبة أواصر الوداد مع أمراء سحلماسة وتاهرت فضلا عن بورغواطة ونكور؛ حيث أردف النص بكلمة «وغيرهم».

وإذا كان الهدف السياسي من وراء تكتيل القوى الموالية لقرطبة موجها إلى العباسيين والأغلبية؛ فالأحرى أن يسحب كذلك على الإدارة. ذلك أن النص يذكر صراحة عبارة «أعداء الأمير محمد في العدوة»^(٢٥)؛ خصوصا وأن مفهوم «لعدوة» كان يعني المغرب الأقصى كما هو معروف لدى المتخصصين. ويفهم من النصين الأولين أيضا أسلوب التجسس الذي عولت عليه كافة القوى آنذاك؛ خاصة وأن النشاط التجاري يتيح لعيون دول الخوارج الوقوف على أحوار جيرانهم

(٢٣) نفسه، ٢٧٥.

(٢٤) نفسه، ١٢٥.

(٢٥) نفسه، ٢٦٥.

الأدارة. وهو أمر استخلصه ابن حيان نفسه حين ذكر أن لأمير محمد لم يتقاعس عن إنفاذ عيونه وجواسيسه ضد أعدائه عمهين بالاشتغال في التجارة^(٢٦)

أما النص الثالث؛ فيكشف في وضوح عن مصالح أموي لأندلس في تجارة المغرب؛ وبالذات ما تعلق منها بالسلع السودانية^(٢٧) وهذا يفسر لماذا أوصى الأمير محمد وزرائه وعياله بحسن معاملة تجار العدو.

وليس أدل على اهتمام أموي الأندلس بالتجارة المغربية والسودانية من الصلات الطيبة بين تجار الأندلس وتجار الأدارة أنفسهم. إذ دأب الطرفان على التعامل في أسواق أصيلا رغم العداء السياسي بين فاس وقرطبة. وفي ذلك ذكر البكري^(٢٨) أن هؤلاء التجار من الدولتين هم الذين اشتركوا في تأسيس أصيلا التي كانت في البدء رباطا تحول إلى سوق ثم أصبحت مدينة تجارية هامة بعد أن أسهم في سائنها وعمرائها تجار من دولة الأدارة بالتعاون مع تجار من الأندلس.

هكذا كان النشاط التجاري بين فاس وقرطبة مستهدفا في حد ذاته من ناحية وموظف لأغراض سياسية تتعلق بالتحسس من ناحية أخرى^(٢٩). وفي هذا الميدان أبلى «الجواسيس التجار» الأندلسيين بلاءا حسنا^(٣٠).

وإذا كانت دول الخوارج قد تبنت المصالح الأندلسية التجارية والسياسية في المغرب؛ فإن إمارة الحميريين بكنور لعبت نفس الدور لصالح قرطبة ضد أمراء

(٢٦) نفسه: ٢٦٩.

(٢٧) عن مرشد من المعلومات. راجع. محمود إسماعيل. الخوارج ٢٧١ وما بعده.

(٢٨) المغرب: ٨٨.

(٢٩) ابن حيان: ٢٧٥.

(٣٠) محمود إسماعيل: مغريات: ١٥٨، ١٥٩.

الأدارة. ففصلا عن متاخمتها دولة الأدارة شمالا؛ الأمر الذي جعل منها «خط دفاع أول» ضد أية تحرشات إدرسية بالأندلس، كانت على صلات تجارية وثيقة بقرطبة^(٣١). وقد أثبت أحد الدارسين^(٣٢) - بما يغني عن الدجاج - هذا الدور السياسي الذي تته إمارة نكور لصالح أموي الأندلس فضلا عن الدور التجاري، حيث كانت موايها مثل مليلة وغمسان ونكور تعصر بلسن الأندلسية لنقل الخشب والحديد الذي أفاد منه أمويو الأندلس في بناء أساطيلهم الحربية والتجارية.

هكذا، اتسمت العلاقات الإدرسية - الأندلسية في عصر الإمارة بطابع العداء الذي اتخذ صورا شتى؛ لكنه لم يصل قط إلى حد امتشاق الحسام.

(ب) موقف الأدارة من الصراع الفاطمي - الأموي بالمغرب الأقصى :

ظهور الخلافة الفاطمية في إفريقية والأموية بالأندلس وتدهور دولة الأدارة بعد تمزقها وتشردمها؛ اتخذت العلاقات بين هذه القوى الثلاث مسارا حديدا. فقد شهد المغرب الأقصى صراعا داميا بين أموي الأندلس والفاطم تذبذبت إياه مواقف الأدارة إراءهما حتى قصى عنها في النهاية سنة ٣٧٥هـ.

ومن المفيد الكشف عن أسباب هذا الصراع وتحديد مصالح القوى التي انزلت إليه، كذا الوقوف على الأساليب والوسائل التي تدرعت بها لتحقيق هذه الأهداف.

(٣١) Provençal. Op. Cit Vol I p 249

(٣٢) انظر عبد الكريم يصعب : ٣٣، ٦٤

السياسية والاستراتيجية والاقتصادية جنت الاختلافات المذهبية والتناقضات الإثنية التي كانت مجرد وسائل توصلت بها قوى الصراع لتحقيق أهدافها أحيانا ومظاهر لهذا الصراع أحيانا أخرى. وفي ذلك يقول أحد الباحثين^(٣٣)، «جرى هد الصراع الطويل لتحقيق مصالح حيوية واستراتيجية تكمن في السيطرة على طرق ومدن ومحطات التجارة في المغرب الأقصى» ويقول آخر^(٣٤)، «إن السبب الجوهري للصراع الفاطمي الأموي كمن في السيطرة على المسلك التجاري الغربي إلى بلاد السودان». فالفاطميون حرصوا على الوصول إلى هذه الطرق وامن ذات الأهمية بالنسبة لتجارة الشرق - الغرب والشمال - الجنوب لجمع الثروات التي تعين على تحقيق أطماعهم في مصر. وهذا يفسر لماذا كانت سياساتهم في المغربين الأوسط والأقصى لا تهتم بالتوسع بهدف الاستقرار قدر إنفاذ الحملات بين الفينة والأخرى لضمان موارد التجارة الدولية وفرص المغارم والجبايات على السكان. وقد اعتمدوا في ذلك على قبائل كتامة وصنهاجة العدو التقليدي لقبائل زناتة الصديق التقليدي للأموي الأندلس.

وأمويو الأندلس تدخلوا في شؤون المغرب الأقصى لا خوفا من غزو وطمي وشيك لبلادهم بقدر الحيلولة دون هيمنتهم على موارد التجارة السودانية^(٣٥) وكانت عدتهم في هذا الصراع قبائل زناتة خاصة تلك التي هاجرت من مواطنها في المغرب الأوسط لتستقر بالمغرب الأقصى تحت ضغط الفاطميين وحلفائهم من

(٣٣) نفسه، ص ٣٨٩، ٣٨٢

(٣٤) نظر الحبيب الحبحاني دراسات مغربية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، ص ٧٣، بيروت ١٩٨٠.

(٣٥) محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، ٢: ٢٣١ وما بعدها، الدار البيضاء ١٩٨٠.

صنهاحه" ١٠ كما اعتمدوا على العناصر الأندلسية التي استوطنت المغرب الأقصى منذ عصر الإمارة. وعلى ذلك يمكن القول بأن الصراع بين صنهاحة وزناتة لم يكن إثنيا بقدر ما استهدف مراقبة مسالك تجارة الصحراء^(٣٧). وهذا يفسر لماذا حرص القطبان على تكريس الجهود العسكرية في المناطق الاستراتيجية كبلاد الريف وسواحل البحر المتوسط ومنطقة تازا ومدن وموانئ المحيط الأطلسي

أما الإدارة؛ فقد تعرضوا للخطر من معا. إذ أن وجودهم غير القار سواء في فاس والبصرة أو في بلاد غمارة وحرر النسر أو سواحل المحيط؛ دخل ضمن ميدان الصراع في المنطقة الحيوية التي تنازع عليها الفاطميون والأمويون. ونظرا لتمزق دولتهم في عهود حلفاء محمد بن إدريس؛ فقد وقفوا موقف المتردد؛ تارة يؤيدون الفاطميين وأخرى يناصرون الأمويين حسب مقتضى الحال. مستهدفين من ذلك مجرد البقاء والاستمرار، واسترداد وحدة دولتهم ما استطاعوا. إلى ذلك سبيلا. وهنا صدق أحد الباحثين^(٣٨) حين قال: «تلخص هدف الإدارة في الهيمنة على الأرض أو بسط السلطان السياسي».

أما عن الوسائل والأساليب التي تدرعت بها قوى الصراع؛ فكان أهمها تجريد الحملات العسكرية، وقد ارتهن إنعقاد هذه الحملات بمعباء القوة والضعف، فضلا عن مقتضيات ماجريات حركة الصراع في المغرب الأقصى.

كما عمد المنصارعون إلى استرضاء القوى المحلية وكسبها إما بالقوة والغلبة أو بالهدنة والعطاء. وقد أفلح هذا الأسلوب في التعامل مع مجتمعات شهدت فراغا سياسيا من ناحية وسادتها السخائم العصبية ومزقتها الإحسان المذهبية من ناحية أخرى

(٣٦) Provençal. Op cit Vol. 3, Paris 1950, p 79

(٣٧) Al-Laroui. L'Histoire du Maghreb, Paris, 1970 p 127

(٣٨) أحمد بدر تاريخ لأندلس في القرن الرابع الهجري، ص ٨٢، دمشق ١٩٧٤

كما أن أسلوب التجسس كان أداة هامة وظفت على نطاق واسع لتحقيق أهداف الصراع من لدن القوى الثلاث^(٣٩). فبعدالرحمن الناصر لم يعد عيوناً وحواسيس من زناة ومن العناصر الأندلسية المقيمة بالمغرب الأقصى. وفي ذلك يقول ابن سعيد^(٤٠): «وكانت للناصر عيون على ما قرب وبعد، صغر أو كبر». أم الحكم المستنصر فقد أوصى قواد حملاته بقوله: «عليكن معكم دسيس إعلام وتقديم تعريف إلى خاصتهم وعامهم»^(٤١).

وبديهي أن يتفوق الفاطميون في هذا المجال نظراً لطول باعهم في معرفة أفانين النشاط السري. لذلك أفضدوا العيون والجواسيس المتحفين في ثياب العلماء ولتجار إلى المغرب الأقصى والأندلس. وحسنا دور جماعة «إخوان الصفا» في هذا الصدد. ومن مشاهير حواسيس القواطم العالم أبو اليسر الرياضي وابن حوقل التاجر والرحالة اللذان جمعاً معلومات ضافية عن أحوال المغرب الأقصى والأندلس؛ جغرافياً وبشرياً^(٤٢).

وبالمثل اتخذت الإدارة عبوناً وحواسيس للإعلام بأنخبار إفريقية والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى والأندلس. خاصة وأنهم لم يعدموا وعود شبعة على مذهبيهم في سائر هذه الأنحاء.

وثمة أسلوب آخر تدرع به المتصارعون هو الدعاية الإيديولوجية؛ التي كرسن لكسب الأعوان والأتباع والأنصار فلم يأل الفاطميون جهداً في بث الدعوة الإسلامية ملاد المغرب والأندلس. ولم يتوان أمويو الأندلس عن ترير

(٣٩) Provençal Op. cit Vol 3, p. 502, 3

(٤٠) المغرب في حلي المغرب، ج ١، ص ١٨٥، بيروت ١٩٤٨.

(٤١) ابن حبان. قطعة عبدالرحمن الحجي، ص ٧٦، بيروت ١٩٦٥

(٤٢) أحمد بدر: ١١١

مشروعية خلافهم حين غلبوها بالمذهب المالكي السني تكاية في الفاطميين
الأسماعيلية والأدارسة الزيدية. وحسباً أن الخليفة المستنصر أمر الفقهاء بحفظ
مدونة سحنون^(٤٣)، كما أنقذهم إلى بلاد المغرب لكسب نظرائهم في المذهب إلى
جانته^(٤٤) ورغم ضعف الأدارسة ونشرهم؛ وحد أمراء منهم حرصوا على
إظهار تشيعهم الريدي والدعوة إلى مذهبهم لكسب الاتباع ولأنصار وحسب
أهم أمروا الدعوة لتشير بظهور إمام عادل تعم دعوته المشرق والمغرب^(٤٥).

هكذا وطمت الإيديولوجية المذهبية لخدمة مخططات سياسية. وحق لأحد
الدارسين^(٤٦) القول بأن «العامل الإيديولوجي عامل ثانوي سخر خدمة السبب
الأساسي في الصراع».

فلنحاول عرض أطوار هذا الصراع مسترشدين بهذا الإطار النظري.
ونوه بأن أحداث الموضوع ووقائعه من الكثرة والتداخل والتخبط بمكان.
لذلك لن نحفل إلا بتبيان الخطوط الأساسية مع التدليل بالوقائع والأحداث بعد
تحقيقها. ونه أيضاً أننا لن نعصر للقوى المحلية الأخرى التي شملها الصراع
إلا بالقدر الذي يساعد على إجلاء موقف الأدارسة إزاء القطيين المتصارعين^(٤٧).

يمكن تقسيم الموضوع إلى أطوار ثلاثة؛ يبدأ الطور الأول مع ظهور
الفاطميين وينتهي بعام ٣٢٤هـ. وقد توازن إيبانه بنفوذ الأمويين والفاطميين في

(٤٣) نفسه، ١٠٧.

(٤٤) نفسه، ١٢١.

(٤٥) بن الأثير: ١، ١٣٢.

(٤٦) نظراً. الحبيب الجحاني: المرجع السابق: ٧٤.

(٤٧) عن دور هذه القوى؛ راجع سوسي، يوسف: دور رباتة في تاريخ المغرب من حروب الفاطميين
إلى ظهور المرابطين. رسالة دكتوراه بإشراف المؤلف. مخطوطة.

عبدالكريم بصمير: الصراع الفاطمي الأندلسي في المغرب الأقصى رسالة ماجستير بإشراف
المؤلف أيضاً، مخطوطة.

المغرب الأقصى، وتذبذب موقف الإدارة بين الولاء والمطبعة لهؤلاء أو أولئك.

أما الطور الثاني فينتهي حول عام ٣٤٧هـ. وقد تميز بسيادة النفوذ الأموي الأندلسي خاصة في المناطق الشمالية من المغرب الأقصى، ثم هوى هذا النفوذ في أواخر الحقبة ليحل النفوذ الفاطمي محله. وقد انتهز الإدارة هذا التحول لتوسيع سيادتهم على حساب أموي الأندلس.

أما الطور الثالث؛ فينتهي عام ٣٧٥هـ وقد شهد تصاؤل النفوذ الفاطمي واستفحال الصراع الأموي الإدريسي، ليمتخص في النهاية عن تعاطف المد الأموي وإسقاط حكم الإدارة.

تعاطف النفوذ الفاطمي في المغرب الأقصى في بداية الطور الأول من أطوار الصراع. ويرجع ذلك إلى مؤامرة قائل صنهاجة التي أرغمت القبائل الزناتية على الهجرة إلى المغرب لأقصى لتلمب - شأنها شأن القوى المحلية الأخرى - دوراً محرباً لصالح أموي الأندلس وهرباً من سياسة التفرغيم والشطط الحبائي التي اتبعتها الفاطميون في إفريقية والمغرب الأوسط^(٤٨).

وبرغم رابطة القرابة بين الإدارة والفاطميين؛ وقف الإدارة إلى جانب بني أمية لمواجهة حملة مصالة بن حبوس التي أفضدها الفاطميون إلى المغرب الأقصى^(٤٩).

توجهت الحملة إلى نكور - حليفة قرطبة - للحيلولة دون تسرب الأمويين إلى طرق التجارة شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً^(٥٠). وقد نجحت في تحقيق

(٤٨) عبدالكريم يصمير: ٣٣٩

(٤٩) ابن عداري: ١٧٥٠١.

(٥٠) أحمد مفر: ٨٥

أغراضها بعد أن توغلت في الداخل وأحكمت السيطرة على منطقة تارا الإستراتيجية.

وإزاء هذا المد الفاطمي، لم يجد يحيى بن إدريس أمير فاس ماصاً من إعلان، لطاعة للفواطم^(٥١).

تمثل رد الفعل الأموي في نجاح الخليفة الناصر - عن طريق الدبلوماسية - في إعادة الأمور بالمغرب الأقصى إلى سابق عهدها خصوصاً بعد انسحاب مصالة.

وفي عام ٣٠٧هـ انفذ الفاطميون حملة مصالة الثانية التي غزت فاس ونجحت في عزل يحيى بن إدريس^(٥٢). وكسب الفاطميون بذلك مدينة هامة ذات مكانة تجارية وكثافة بشرية وقيمة روحية.

وبعد انسحاب مصالة؛ تمكن الأمير الإدريسي الحسن الحجام من استرداد فاس^(٥٣) ثم استعان بقبائل البربر الناقمة على الفواطم ليمد نفوذه إلى البصرة وأصيلا وزويغة وغيرها^(٥٤).

عندئذ أحد موسى بن أبي العافية - حليف قرطبة - على عاتقه مهمة تأديب الحسن الحجام؛ نظراً لانشغال الناصر بمشكلات داخلية أندلسية. فاستولى موسى على فاس وتوسع على حساب آل سليمان - أبناء عمومة الإدارة - في تلمسان وجراوة^(٥٥). فنقلص بذلك نفوذ الإدارة وتوقعوا في حجر النسر ببلاد غمارة

(٥١) الكري: ١٢٥

(٥٢) م: ١٢٦.

(٥٣) ابن أبي زرع: ٨١

(٥٤) Terrasse, H. Histoire de Maroc. Casablanca, 1949, p 127

(٥٥) ابن عداري: ١٣٤٠١

حيث كان أميرهم آنذاك هو محمد بن القاسم بن إدريس^(٥٦) أما هو عمر بن إدريس فقد انكمشوا في تيجاس^(٥٧)، بينما لاذ آل سليمان بأرشقول^(٥٨).

نخشي الناصر من تعاظم نفوذ موسى بن أبي العافية على حساب القوى المحلية الموالية له بالمغرب الأقصى. لذلك عقد العزم على إلهتهم بأمور لعدوة وأنفذ حملة استولت على مليلية^(٥٩) ودعمت نفوذ حلفائه بنكور. كما استهالت محمد بن خنزر المعراوي - عدو الفاطميين اللدود - الذي تمكس بمعاونة لناصر من مد نفوذه من تلمسان إلى تخوم إفريقية بحذاء الساحل^(٦٠).

أما عن موقفه من الإدارة؛ فقد عقد وفاقاً مع آل سليمان وعجز عن استمالة إدارة الريف لتبشّثهم بالولاء للفواطم^(٦١). ولا نجد مبرراً لزعم ابن حبان^(٦٢) بأن هذا الولاء كان «نصراً للعصية وانحرافاً عن بني أمية للأحقاد القديمة». ذلك أن عداوة الإدارة للفواطم كان أكثر حدة من عداوتهم للأموي الأندلس. ولم تكن مواقفهم من هؤلاء أو أولئك إلا لخدمة طموحاتهم في استرداد نفوذهم المفقود.

على كل حال - بلغ المد الأموي أوجح باستيلاء الناصر على سبتة التي «اشتد بها سلطانه وتعاظم بها شأنه لما ملك البحر بعدوته». وأضحت ركاباً إلى العدو. . توطدت بها طاعته بأرض المغرب^(٦٣).

(٥٦) ابن أبي ذرع: ٨٥

(٥٧) ابن خلدون: ٤٤٨، ٦

(٥٨) ابن عداري: ١٩٦: ١

(٥٩) ابن الخطيب: ١٧٦: ٣

(٦٠) ابن عداري: ١٩٤: ١

(٦١) ابن حبان: قطعة شاليتا، ص ٢٦٢

(٦٢) نصن المصدر والصحة

(٦٣) نصه: ٢٨٩

ولم كانت سببة تابعة للأدارسة؛ لذلك حاولوا استردادها. وبالمرجرد إبراهيم بن محمد وأخوه القاسم جنون حمله لم يقدر لها النجاح^(٦٤) كما حاول آل سليمان استرداد تلمسان وجراوة دون طائل^(٦٥). عندئذ أنفذ الناصر أسطوله لجمع الأدارسة وآل سليمان في آن؛ فلم يجد الحصان مدأ من لإدعاء^(٦٦) وتعطل الأدارسة بأن قبائل البربر هي المسؤولة عن عزو سببة. ويسدو بالفعل أن قبائل بني يفرن الموالية للأدارسة كانت من وراء غزو المدينة^(٦٧) كما تدرع السليمانيون بأن ولاءهم للناصر جر عليهم نقمة الأدارسة

ومع ذلك كان إعلان هؤلاء وأولئك الطاعة للناصر من قبيل التمويه؛ إذ ما لبث السليمانيون أن تحصنوا بجزائر ملوية^(٦٨) أما الأدارسة فقد اتصلوا من طاعتهم على إثر انفاذ الفاطميين حملة جديدة بقيادة حميد بن يصل؛ استولت على تلمسان وجراوة وفاس وكفلت للعلويين شيئاً من نفوذ^(٦٩)

اهتبل الأدارسة الفرصة فهاجموا أصيلا وحشدوا جهة قوية ضد لناصر مكنتهم من الاستيلاء عليها^(٧٠) لكن التجار الأندلسيين بالمدينة راسلوا الناصر يطلبون النجدة؛ فأنفذ أسطولا وضع حداً لنفوذ الأدارسة بأصيلا^(٧١).

(٦٤) نفه ٢٩٠ وما بعدها.

(٦٥) نفه ٢١٣.

(٦٦) نفه ٣٦٢.

(٦٧) صوسي يوسف ٧٠.

(٦٨) بن عداري: ١: ٢٠٠.

(٦٩) عبدالكريم بصحين: ٢٨٢.

(٧٠) اس عداري: ١: ٢٤٣.

(٧١) بن حبان: ٣٤٧.

وبالمثل راسل الإدارة القاسم بن المهدي الفاطمي، فأخذ حمة يقودها
ميسور لفتي الذي تمكن من اقتحام فاس^(٧٢) بعد القضاء على نفوذ ابن أبي
العافية وأورث الإدارة أملاكه^(٧٣).

لكن لإدارة عجزوا عن دخول فاس عقب رحيل ميسور، كما عجزوا
عن استرداد أصيلا؛ فعادوا للتفوق في حجر النسر^(٧٤). ولم يجدوا مجيذاً عن
الكتابة إلى الناصر يؤكدون اتصالهم من التبعية للفواطم ويعيدون له الطاعة
مبررين مسلكهم «بالخوف من بطش ميسور ودفعاً لمكروهه»^(٧٥).

على كل حال - انتهت هذه المرحلة من الصراع في المغرب الأقصى بنزول
الإدارة في حجر النسر وأحوارها، وإن ظلت بعض قبائل غمارة تدين لهم
بالتبعية^(٧٦). وبالمثل انحصر نفوذ آل سليمان في سوق إبراهيم وأحوارها بعد أن
بطش بهم الأمويون والفواطم على السواء^(٧٧).

استهل الطور الثاني من الصراع عام ٣٢٥هـ بانحسار نفوذ قطيبة في
المغرب الأقصى نظراً لانشغالها بمشكلات داخلية، الأمر الذي اتاح للقوى المحلية
أن تعمل لحسابها وتوسع من دوائر نفوذها. فقد نجح السليمانيون في استرداد
جراوة وتلمسان^(٧٨) كما تمكن إدارة حجر السر بقيادة القسم جنون من
استعادة أصيلا سنة ٣٢٦هـ، ثم ثنوا بالنصرة وتوسعوا شرقاً صوب ممر تازا^(٧٩).

(٧٢) ابن أبي زرع: ٨٥

(٧٣) ابن عداري: ١: ١٩٨.

(٧٤) ابن أبي زرع: ٨٧.

(٧٥) ابن حيان: ٣٩٠

(٧٦) ابن عداري: ٢١٤. ١

(٧٧) عبدالكريم بيصعين: ٢٩٥

(٧٨) ابن حيان: ٣٨٦

(٧٩) ابن عداري: ١: ٢٣٥

وقدر للإثنين معا مد نفوذهما إلى مناطق ذات أهمية تجارية واستراتيجية

ولا محل لتصديق ما قيل من أن هذا النشاط كان يجري لحساب المواطن والصواب أنه تم على ألقاص الأمويين واتساعهم من زناتة^(٨٠).

لذلك ألقا الناصر حملة على المغرب الأقصى سنة ٣٣٣هـ؛ نجحت في لصعظ على أدارة تجسس من بني عمر بن إدريس؛ فأدعوا لطاعة لناصر.

على أن أدارة حجر السر برعامة القاسم جنون أعلوا الحرب على الأمويين وبني عمر في آن ووجهوا جيوشهم صوب سبتة وطنجة وتيجساس^(٨١).

وعلى إثر وفاة القاسم جنون حل ابنه أحمد أبي العيش محله؛ مواصل سياسة أبيه في التوسع وتمكن من إخضاع فاس^(٨٢). وضيق الخناق حول سبتة بأن شيد مدينة تيطاون^(٨٣).

إزاء تعاظم الخطر الإدريسي؛ حرد الناصر حملة على المغرب الأقصى سنة ٣٣٥هـ؛ قدر لها تخريب تيطاون ومحاصرة أحمد أبي العيش حتى استسلم. وحمل قسرا إلى الأندلس لوضع حد لمناوراتهم^(٨٤). وجرى تنصيب أخيه الحسن بن القاسم مكانه فاعترف بالطاعة للأمويين. وظل الود طابعا للعلاقة بين الطرفين

(٨٠) عبد الكريم يصمين: ٣٠٨.

(٨١) ابن عداري: ١: ٢١١.

(٨٢) ابن أبي زرع: ٨٨.

(٨٣) الكري: ١١٩.

(٨٤) عبد الكريم يصمين: ٣١٧.

لا محل لتصديق ما ذهب إليه الكري من أن أحمد أبي العيش توجه إلى الأندلس طوعة واختيار رعة مه في المذاكرة ضد التصاري
انظر: مغرب: ١٣١.

حتى أعد المعز لدين الله الفاطمي حملة كبرى من كتامة وصنهاجة^(٨٥)؛ أسند قيادتها إلى جوهر الصقلي وأنفذها إلى المغرب الأقصى؛ فوصلت فاس سنة ٣٤٧هـ. وفتح جوهر في الاستيلاء على ديار آل سليمان وأحكم السيطرة على الطرق التجارية بين الشمال والجنوب^(٨٦).

أما الإدارة؛ فقد لاذ أميرهم الحسن بن القاسم بالاندلس^(٨٧)، وكان بوسع جوهر إسقاط إدارة الشمال؛ لكنه عزف عن ذلك نظر البعد ديارهم عن طرق التجارة نحو السودان^(٨٨).

هكذا انصرم الطور الثاني من أطوار الصراع بعد أن توطد النفوذ الفاطمي على حساب الإدارة والأمويين. وحسبنا أن النفوذ الأموي اقتصر آنذاك على مدينة سبته.

بدأ الطور الأخير في تاريخ الصراع بحقبة من الهدوء النسبي؛ نظرا لانشغال الفاطميين بالإعداد للعودة إلى مصر، وانشغال أموي لاندلس بمواجهة الأخطار الداخلية والخارجية التي واكبت وفاة الناصر وأيلولة الخلافة إلى الحكم المستصغر. وهذا يفسر لماذا عول الأخير على الدبلوماسية وتقديم الأموال والألطف للقوى الموالية له في المغرب. فوثق علاقته ببورغواطة؛ ليكفل للاندلس نصيبا من تجارة السودان عبر طريق تاروادنت^(٨٩). كما أسقط الضرائب على أهل سبته كسب

(٨٥) ابن أبي زرع: ١٠٠

من مظاهر هذا الود إبعاد الناصر أحد أطبائه لملاح أحد أمراء الإدارة، انظر: ابن حبان: ٤٦١

(٨٦) عبدالكريم بيصم: ٣٣٩

(٨٧) ابن عداري: ١٩٨ - ١

(٨٨) عبدالكريم بيصم: ٣٤٢

(٨٩) نفسه ٣٥٣

أما الأدرسة فقد أنفذوا رسلهم إلى قرطبة سنة ٣٥٩هـ، بعد أن تهددهم الخطر الفاطمي؛ يعلنون الطاعة للحكم المستنصر^(٩١). لكنهم ما لبثوا أن استعلوا تقاعسه عن التدخل العسكري في المغرب الأقصى؛ وأخذوا يعملون لحسابهم؛ خاصة بعد أن وافتهم أخبار قدوم حملة فاطمية. وفي ذلك يقول مؤرخ مجهول^(٩٢) أن «الحسن بن القاسم طمع في الوثوب بأصحاب الخليفة الحكم»

وبالفعل استعل الحسن هذه الظروف؛ فبسط نفوذه على كفة الأقاليم الشمالية الغربية من المغرب الأقصى^(٩٣). إذ استعاد أصيلا وفتح طجة وحاصر سبتة سنة ٣٦٠هـ بعد أن أزرتة قبائل من بربر غمارة وصنهاجة. ونسبى له بذلك الهيمنة على مصائر الأمور في المناطق الشمالية الغربية من المغرب الأقصى^(٩٤).

وقد ذكر ابن حيان^(٩٥) - كمعادته - أن العاهل الإدريسي فتح هذه البلاد باسم الخليفة المعز. لكن المؤكد أنه كان يعمل لحسابه متتهرا تقاعس الحكم المستنصر عن التدخل العسكري وعروف المعز عن أمور المغرب الأقصى - والأوسط أيضا -^(٩٦) نظرا لانشغاله بالانتقال إلى مصر. ونحن نؤكد على هذه السياسة الإدريسية المستقلة ونرى أن ولاء الأدرسة لأي من الطرفين الأموي أو الفاطمي لم يكن إلا نتيجة الضغوط التي مارسها على الأدرسة^(٩٧).

(٩٠) ابن عذارى: ١: ٢٧٧

(٩١) نفسه: ٢٤٠.

(٩٢) صاحب كتاب معاصر البربر، ص ٨، الرباط ١٩٣٤.

(٩٣) Provencal: Op. cit. Vol 3, p 185

(٩٤) أحمد بدر: ٩٢

(٩٥) ابن حيان: قطعة الحجى: ٧٩: بيروت ١٩٦٥

(٩٦) عبد الكريم بيصمين: ٣٦٥.

(٩٧) محمد عبدالله حان: ٤٩٢

على كل حال - لم يدم هذا الوضع طويلا؛ فقد تخلص الحكم المستنصر من مشكلاته الداخلية والخارجية وأزمع التدخل في المغرب الأقصى. فبادر بتجريد حملة كبرى دعمها بأسطول ضخم^(٩٨). ونححت جيوشه في استرداد نيطاون وطجة وأصيلا، لكنها هزمت في معركة مهران وقتل قائدها. ونجح الحسن بن القاسم في لم شمل بربر المنطقة لدعم نفوذه فيها^(٩٩).

لذلك لحا الحكم المستنصر إلى الأساليب الدبلوماسية من جديد. فأرسل الهدايا إلى رؤساء القبائل، وشن حملة دعائية تتهم الحسن بن القاسم بالإلحاد^(١٠٠).

وعملت هذه الوسائل عملها؛ فانفض البربر عن الحسن بن القاسم، كما تخلى عنه بعض أفراد البيت الإدريسي؛ فلم يجد بدا من طلب «المودعة» وأنفذ رسله إلى قرطبة في هذا الشأن؛ لكن الحكم المستنصر أصر على «نفيه من أرضه وإخراجه عن جميع ذلك البلد»^(١٠١).

وبالمعل حاصرته الجيوش الأموية وطارده حتى تم القبض عليه ونفيه إلى الأندلس^(١٠٢). أما أتباعه فقد عما الحكم عنهم شريطة «موالاة من والاه ومعاودة من عاده والسير مع السنة والجماعة وفق أحكام المذهب المالكي»^(١٠٣).

هكذا تمكنت الحملة الأندلسية من استئصال شأفة الإدارة ببلاد الريف^(١٠٤)، وتحويل أتباعهم من المذهب الزيدي إلى المذهب المالكي.

(٩٨) ابن حيان: ٨٩، ٩٠.

(٩٩) نفسه: ٩٩.

(١٠٠) نفسه: ١٥٠.

(١٠١) نفس المصدر والصفحة.

(١٠٢) نفسه: ٢٠١.

(١٠٣) نفسه: ٨١ - ٨٩.

(١٠٤) محمد عبد الله عان - ٤٩٧.

على أن الحسن بن القاسم تمكن من الهرب ونزل إفريقية لاثدا سلاط بني زيري ومنها توجه إلى مصر^(١٠٥). وهناك اتصل بالخليفة الفاطمي لعزير بالله ليعيه على استعادة رياسته. وبالفعل أمر الخليفة بلكين بن زيري بقيادة حملة إلى المغرب الأقصى على أن يصطحب معه الحسن بن القاسم ليعمل «على تعكير الحو وإقامة العراقل أمام بسط السيادة الأموية»^(١٠٦).

وأفدت الحملة بالفعل وتمكن الحسن بن القاسم من كسب قنابل البربر إلى جانبه^(١٠٧)؛ وخاصة بني يفرن الزناتيين^(١٠٨). لكن وفاة بلكين المماجئة وترجع حملة إلى إفريقية فتح أبواب المغرب الأقصى على مصراعيها للحد الأموي من جديد.

ذلك أن المصور بن أبي عامر أنفذ حملة إلى المغرب الأقصى تعاونت مع زيري بن عطية الموراوي؛ قدر لها أن تخرج الحسن بن القاسم على الاستسلام^(١٠٩). وتم القضاء على حركته سنة ٣٧٤هـ^(١١٠).

وبالقضاء على هذه الحركة سقطت دولة الإدارة. واحتفى أفراد البيت الإدريسي في أغمار القبائل^(١١١). وقامت دولة بني زيري الموراوية على أنقاضها متخذة من فاس الإدارة حاضرة لها^(١١٢).

(١٠٥) قيل أن الحكم المستنصر هو الذي أمر بطرده هو وأصحابه من الأندلس؛ لتوفير ما يفتق عليهم من نفقات باهظة.

نفس المرجع: ٤٩٩.

(١٠٦) أحمد بدر: ١٠٠.

(١٠٧) بن أبي زرع: ٩٣.

(١٠٨) أحمد بدر: ١٠٠، سوسي يوسف: ٧٤.

(١٠٩) أحمد بدر: ١٠٠.

(١١٠) ابن أبي زرع: ٩٤.

(١١١) سوسي يوسف: ٧٥.

(١١٢) نفسه: ٧٧ وما بعدها.

وفي ذلك يقول ابن أبي زرع^(١١٣). «كأند الأدارسة مملكتين عظيمتين ودولتين كبيرتين؛ دولة العبيديين بمصر وإفريقية ودولة بني أمية بالأندلس. وكانوا يمارعون الخلفاء إلى درك الخلافة ويقعدهم ضعف سلطانهم وقلة مالهم».

على أن بعض أفراد البيت الإدريسي تمكنوا فيما بعد من الأحد ثار آبائهم حين أسهموا في إسقاط الخلافة الأموية بالأندلس وأقاموا دولة بني حمود. وفي ذلك يقول ابن الخطيب^(١١٤). «ركدت ريح العلوية بالمغرب. وكان من بقي منهم بقرطبة في ديوان السلطان جارين مجرى المعارة إلى أن كانت الفتنة التي أدت إلى انقراض دولة بني أمية وتصير الأمر إلى هؤلاء الأدارسة».

(١١٣) القرطاس: ٩٥.
(١١٤) أعيان الأعلام: ٣: ٢٢٤.

خاتمة

طرحنا في مقدمة الكتاب وتقديمات الأبواب «إشكاليات الموضوع» وأوضح ما تعلق منها «بالإطار المرحعي» وما اختص بمناهج المعالجة، وما ارتبط بالموضوع ذاته من حيث الأحداث والوقائع ومن حيث التفسير والتأويل

كما تعهدنا بتقديم «الجديد» عن طريق حلحلة تلك الإشكاليات؛ وهو ما أعلنه في عنوان الكتاب.

والسؤال هو: هل نجح الباحث من خلال عرضه أن يفي بالوعد ويقدم الجديد؟

بديهي أن تترك الإجابة للمتخصصين؛ فهم وحدهم مناط الحكم فيها، إذا كان هذا الجديد حقيقة أم ادعاء. لكن واحب المؤلف إزاء القراء من غير المتخصصين فضلا عن الضرورة المنهجية التي تلزمه باختتام دراسته بما يبيد مدى ما أسفرت عنه؛ يجعل من المشروع عرض الإسهامات التي أنجزتها الدراسة ولو عن طريق التنويه والإشارة.

لذلك؛ يمكن أن ننوه بما يأتي:

أولا: بخصوص الإطار المرحعي؛ كان الباحث حسن الطالع حين وقف على مادة جديدة أمكن الإفادة منها في إجلاء تاريخ كان قل مضيا وشهد العرض والبليوجرافيا على درجة هذه الإفادة من الوثائق والنصوص الجديدة

ولمسكوكات التي جرى استخلاص حقائق جديدة منها لم تكن معروفة سلفاً، الأمر الذي ساعد على «ملا فجوات» و«سد ثغرات» في تاريخ الإدارة هذا فصلاً عن حسم الكثير من القضايا الخلافية وتصحيح المزيد من الآراء المشتتة، حسماً لا يترك المجال لشبهة.

ويشهد العرص أيضاً على أن الباحث لم يقف من هذه المادة الجديدة موقف «الانبهار» بل تناولها، «بالشرح والتعديل» قصد التحقق من صدقها، وسلك في هذا الصدد منهج المقارنة؛ حيث وازن بينها وبين الإشارات التي تظهر في المصادر المعروفة. وراجع القديم والحديد بالعودة إلى السياق العام لتاريخ الدولة المؤرخ لها؛ تأسيساً على قاعدة خلدونية صحيحة هي الاحتكام إلى «طبائع العمران» و«قياس الغائب على الشاهد». واتضح بالفعل أن بعض هذه النصوص الجديدة انطوت على مالفات وأخطاء بله «مفارقات» في بعض الأحيان. كما هو الحال - على سبيل المثال - بالنسبة لنصوص ابن حيان التي تنضح بالتحامل على الإدارة وتنحاز لخصومهم أموي الأندلس.

ثانياً : فيما يتعلق بالمنهج، أثبت المؤلف في مقدمة الكتاب واستهلاات الفصول والأبواب عقم المناهج التقليدية سواء في مجال التحقيق أو في نطاق التفسير والتأويل. وفتح الباب على مصراعيه لسائر المناهج الحديثة - خاصة وأن ثورة منهجية في العلوم الإنسانية أنحزت في السنوات الأخيرة - حيث وظفها بلقدر الذي يوافق قدراتها وفي المواضع المناسبة لإمكاناتها. وعلى سبيل المثال وظف النيوية والسيمولوجية في قراءة النصوص للإفصاح عن محتواها والوقوف على دلالات اصطلاحاتها بل ألفاظها. بذلك تسنى له الوقوف على «كر» من المعلومات طالما حجبت أمام القراءات الكلاسيكية؛ أفاد منها حصيصاً في محل تحقيق الأحداث والوقائع والأسماء والألقاب والتواريخ وما شابه

أم في مجال التفسير؛ فقد عقد المؤلف «وفاقاً» بين «الآراء» الخلدونية والنظرية المادية في المعرفة؛ دون اعتساف أو تحن على ما اصطلح على تسميته «بالأصالة والمعاصرة».

وقد يرى البعض أن الباحث اهتم بالتاريخ السياسي في المحل الأول؛ ومن ثم أهمل التاريخ الحضاري فلم يفرد له مباحث مستقلة في الكتاب وفي هذا الصدد نسه إلا أن منهجنا لا يرى فصلاً بين ما هو سياسي وما هو حضاري؛ تأسيساً على «السيرورة» و«الصيرورة» التاريخية التي تتسم بالشمول والتوحد، والتكامل. لا بالتحزب والتقسيم العشوائي المتعسف. كما ينوه المؤلف بحدّة منهجه في هذا الصدد. ولا حاجة بنا لدفاع نظري عنه بعد أن أثبت التطبيق العملي صحته. وحسبنا أنه يفضل هذا المنهج تحول تاريخ الإدارة من كونه أحداثاً ووقائع لا رابطة بينها إلى مجموعة من «الأفكار» الواضحة المستفاد من استقراء الأحداث والوقائع التي تعامل معها الباحث باعتبارها «مادة أولية».

وقد يقف القارئ المتخصص أيضاً على «جديد منهجي» فيما استنه الباحث من توسيع دائرة موضوع بحثه. إذ وضع الإدارة في مركز دائرة صغرى هي المغرب الأقصى الذي لا يمكن فهم تاريخه إلا بعد إحاطته بدائرة أرحب هي المغرب الكبير. أو بلاد المغارب كما يجلو للمؤرخين المعاربة المحدثين الاصطلاح. الذي طوّقه الباحث بدائرة أكثر اتساعاً هي «دار الإسلام». بل اضطر الباحث أحياناً إلى إحاطة كل هذه الدوائر بدائرة التاريخ العالمي والباحث إذ ينهج هذا النهج؛ على قناعة تامة بثراء المعرفة المترتبة على رؤية الخاص في إطار العام.

ثالثاً. بخصوص الموضوع. وهو تاريخ الإدارة. يحسب الباحث أنه قدم «حلولاً» ناجعة لمعظم «إشكالياته». وحتى لا يتوهم القارئ ظلال «برحسية» في هذا الحكم، يبادر المؤلف فيسببه إلى أن الفضل في ذلك يعود إلى «المدة الجديدة»

التي توافرت له و«المنهجية الجديدة» التي توصل بها في دراسة الموضوع.

ولا يتسع المجال إلا للإشارة العابرة إلى بعض السائح التي انتهى إليها البحث ففي الباب الأول جرى إثبات وجود دعوة زيدية في الشرق - لأول مرة - بدأت مستقلة، ثم انحدرت في الدعوة العباسية، ثم انفصلت عنها لتدمج أخيرا في دعوة المعتزلة.

ومن خلال عرض الموضوع؛ اتضح أن دولة الأدارسة مدمية في تأسيسها إلى هذه الدعوة. على عكس ما ذهب إليه معظم الدارسين من أنها قامت كحدث عفوي مجاني دون سابق إعداد أو تنظيم.

كما أثبت العرض أن قبيلة أوربة المعتزلية شكلت العصبية التي قامت بأمر الدعوة في المغرب الأقصى وتوجتها بتأسيس دولة برهن قيامها على صحة النظرية الخلدونية في قيم الدول «عظيمة الملك عريضة الاستيلاء».

وفي الباب الثاني؛ أثبتت الدراسة - لأول مرة - كذلك صدق الرؤية الخلدونية - «العصوية» في تطور الدول من الطفولة إلى المراهقة والفتوة ثم الشيخوخة. ومن ثم انفرد عرض سياسة الأدارسة الداخلية بتعاشي المنهجيات «الكرونولوجية» و«التبولوجية» و«الإثنية»؛ ليحل محلها بناء متسق ذو معالم واضحة مرتبطة بمعطيات الواقع «السوسيوي-سياسي»؛ حيث ترتبط الأسباب بالمسيبات وردود الأفعال بأفعالها إذ أوصح العرض سياسة «المخزن» ورتب عليها مواقف المعارضة التي أثبت أنها لم تكن مجرد حركات عفوية تعبر عن سحائم عصبية أو برعات مدهية أو معامرات فردية؛ بقدر ما كانت تعبيرا عن معطيات «سوسيوي-اقتصادية» كما أثبت العرض تأكيد الطبيعة الخاصة والمتعيزة لمفهوم «الدولة لمعرية القرو - وسطوية»؛ حيث لعبت الجغرافيا الطبيعية والبشرية دورا موجهها لحركة التاريخ.

على أن الإشارة إلى السمة الخاصة «للدولة المغربية» لا تتعارض مع اعتقادنا في القوانين العامة المحركة للتاريخ فهي إطارها أمكن تفسير تاريخ الأدرسة في إطار هذه القوانين نفسها. إذ تمهم هذه الخصوصية ضمن «محتتمعات ما قبل الرأسمالية».

لذلك؛ كان الإطار النظري الذي انتهى عرض الموضوع إلى صياغته هو «الصراع بين الوريوزوازية والإقطاع».

وفي الباب الثالث؛ تناول المؤلف موضوع العلاقات الإدرسية الخارجية. ويزعم الباحث سيطرته على الموضوع بالوقوف على قاعدتين هامتين تحكمان مساره. الأولى: قاعدة «التوازن» بين القوى؛ بحيث لم تتغير خريطة الغرب الإسلامي تغييرا ذا بال إذ حافظت كافة القوى ذات العلاقات مع الأدرسة على معطيات «سياسة الأمر الواقع» «Status-quo». برعم مشروعاتها السياسية التوسعية الكبرى التي أفست إلى حيك المؤامرات والاعتبالات وتدير المكائد والصراع العسكري في بعض الأحيان.

والثانية؛ هي قاعدة «المصالح الاقتصادية المشتركة» التي دعمت قاعدة «توازن القوى» - إن لم تكن من أهم أسبابها - والتي جعلت صيغة «التعايش» تحب الاختلافات لإثنية والخلافات المذهبية والطموحات السياسية.

وإذا كن مؤرخا مثل «حوتيه» قد أشار إلى القاعدة الأولى، وآخر مثل موريس بومار قد فطن إلى أهمية القاعدة الثانية؛ فإننا محزم بأن أيا منها لم يطبق ما توصل إليه نظريا.

ولا يجد المؤلف حرجا في الإعلان عن اغتباطه بما أبحر في هذا الموضوع الذي عاينه عبره من المؤرخين في ورقات تعد على أصابع اليد الواحدة.

أما عن إسهامات هذه العمل في مجال التحقيق؛ فحسبه أن كل صفحاته لا تخلو من حديد في تحقيق التواريخ والأسماء والمواضع والأماكن كذا في الكشف عن أخطاء القدامى والمحدثين.

وفي مجال التفسير؛ لا يتقاعس المؤلف عن الإشارة إلى ما تضمنته مقدمات الفصول والأبواب من آراء نظرية حوت برهنتها خلال العرض لتتحول إلى أحكام ومقولات وتعقيبات اختتم بها كل باب وكل فصل.

وهذا يرجع إلى قناعة المؤلف بقراءته الجديدة لمقدمة ابن خلدون وربط نتائجها باجازات النظرية المادية في المعرفة دون تعصب أو اعتساف.

لقد دلل هذا العمل - بامتيار - عما سبق أن بشر به وتبناه وأثبته المؤلف في كتابات سابقة - ذات طابع نظري سجالي - في مجال المنهج والرؤية

أخيرا - يعتذر الباحث عن الأسترسال في تبيان «الجديد» الذي توصل إليه، وعزاؤه أنه كتب هذه الخاتمة لا باعتباره مؤلف الكتاب؛ بقدر كونه قارئ متحوصا له.

والله ولي التوفيق

المصادر

- ١ - اس لأبار. الحلة السيرة، ج١، القاهرة ١٩٦٣، فبراير ١٨٦٦
- ٢ - اس أبي ررع: روض القرطاس، الرباط ١٩٧٢.
- ٣ - اس الأثير الكامل في التاريخ، ج٥، القاهرة ١٩٥٧.
- ٤ - بن حيان: المقتبس من أخبار أهل الأندلس، تحقيق الحجي، بيروت ١٩٦٥.
- ٥ - بن حيان: المقتبس من أخبار أهل الأندلس، تحقيق محمود مكي، بيروت ١٩٧٣.
- ٦ - اس حيان: المقتبس من أخبار أهل الأندلس، تحقيق شليتا، مدريد ١٩٧٩.
- ٧ - ابن حوقل: صورة الأرض، ليدن ١٩٣٨.
- ٨ - ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج٣، الدار البيضاء ١٩٧٤.
- ٩ - بن خلدون: المقدمة، القاهرة؟.
- ١٠ - بن خلدون: العبر، ج٤، ٦، بيروت ١٩٧٩.
- ١١ - ابن سعيد: المغرب في حلي المغرب، بيروت ١٩٤٨.
- ١٢ - ابن عبدالحكم: فتوح مصر والمغرب، ليدن ١٩٢٠.
- ١٣ - بن عبدربه: العقد العريد، ج٣، القاهرة ١٩٤٠.
- ١٤ - بن عداري: البيان المغرب، ج١، باريس ١٩٤٨.
- ١٥ - بن عداري: البيان المغرب، ج٢، بيروت ١٩٥٠.

- ١٦ - ابن عرفة الورعمي: باب الإمامة، حوليات الجامعة التونسية، عدد ٩، تونس؟.
- ١٧ - ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، بريل ١٩٨٥.
- ١٨ - ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ج١، القاهرة؟.
- ١٩ - إبراهيم العبيدي: البورغواطيون في المغرب، مراكش ١٩٨٣.
- ٢٠ - أبو ركريا: السيرة وأخبار الأئمة، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٩٠٣٠ ح.
- ٢١ - أحمد بلدر: تاريخ الأندلس في القرن الرابع الهجري، دمشق ١٩٧٤.
- ٢٢ - أرشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية في البحر المتوسط، القاهرة؟.
- ٢٣ - إسعاده الشيخ: المجتمع المغربي في عصر الولاة، رسالة ماجستير، مخطوطة.
- ٢٤ - الإدريسي: نزهة المشتاق، الجزائر ١٩٥٧.
- ٢٥ - لأصفهاني: مقاتل الطالبين، السحف ١٣٥٣ هـ.
- ٢٦ - الحبيب الخنحاني: القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية، تونس ١٩٦٨.
- ٢٧ - الحبيب الخنحاني: المغرب الإسلامي، تونس ١٩٧٨.
- ٢٨ - السيد عبدالعزیز سالم: المغرب الكبير، ج٢، الإسكندرية ١٩٦٦.
- ٢٩ - Al-Laroui L'histoire du Maghreb, Paris, 1970.
- ٣٠ - إيث لأكوست: العلامة ابن خلدون، بيروت ١٩٧٤.
- ٣١ - Eustache Compas de dirhams Idrisites et contemporains, Rabat, 1970.
- ٣٢ - Provençal, L. Histoire de l'Espagne Musulmane, Vol 1, Alger, 1944, Vol 3, Paris, 1950.
- ٣٣ - السعدادي: الفرق بين الفرق، القاهرة؟.

- ٣٤ - البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، باريس ١٩١١.
- ٣٥ - البلاذري: أنساب الإشراف، ج٣، القاهرة ١٩٥٩.
- ٣٦ - البلخي: مقالات إسلامية، تونس ١٩٧٤.
- ٣٧ - Terrasse, H: Histoire du Maroc, Casablanca, 1949.
- ٣٨ - الجاحظ: البيان والتبيين، ج١، القاهرة ١٩٤٨.
- ٣٩ - Gautier: Les siècles obscurs du Maghreb, Paris, 1927.
- ٤٠ - جولدتسيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام، القاهرة ١٩٥٩.
- ٤١ - جوليان: تاريخ إفريقية الشمالية، تونس ١٩٨٥.
- ٤٢ - حسن أحمد محمود: العالم الإسلامي في العصر العباسي، القاهرة ١٩٦٩.
- ٤٣ - حسن علي حسن عبدالعواد: دولة الأدارسة، رسالة ماجستير - مخطوطة.
- ٤٤ - الدمشقي: تاريخ الجهمية والمعتزلة، ؟
- ٤٥ - الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب، تونس ١٩٦٩.
- ٤٦ - سامية توفيق: انتشار الإسلام والثقافة العربية في بلاد المغرب، القاهرة ١٩٨٦.
- ٤٧ - سعد زغلول عبدالحميد: تاريخ المغرب العربي، ج١، الاسكندرية ١٩٦٤.
- ٤٨ - Scott: History of the Moorish empire in Europe, Vol.1, London, 1904.
- ٤٩ - السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء ١٩٥٤.
- ٥٠ - السنوسي: الدرر السنية في أخبار الدولة الإدريسية، القاهرة ١٩٥٤.
- ٥١ - سنوسي يوسف: دور زناتة في المغرب الإسلامي من خروج الفاطميين حتى قيام المرابطين، رسالة دكتوراه - مخطوطة.
- ٥٢ - الشماخي: السير، القاهرة؟.
- ٥٣ - الشهرستاني: الملل والنحل، ج١، القاهرة ١٩٤٥.

- ٥٤ - صاحب إسماعيل بن عباد: نصرة مذاهب الزيدية، بغداد ١٩٧٧.
- ٥٥ - عبدالكريم بيصعين: الصراع الفاطمي الأندلسي في المغرب الأقصى - رسالة ماجستير - مخطوطة.
- ٥٦ - عبداللطيف السعداني: إدريس الأول: منشيء دولة وباعث دعوة، مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية، فاس عدد ٤، ٥، سنة ١٩٨٠، ١٩٨١.
- ٥٧ - عبدالمنعم ماجد: العصر العباسي الأول، القاهرة ١٩٧٣.
- ٥٨ - فلهوزن: الخوارج والشيعة، القاهرة ١٩٦٨.
- ٥٩ - Vonderheyden: La berberie Musulmane sous la dynastie des Benou' L. - Arlab, Paris, 1927.
- ٦٠ - Fournel: Les Berbers, Vol.1, Paris, 1875.
- ٦١ - Marcais, G: L'Afrique du Nord Francais dans l'histoire, Paris, 1937.
- ٦٢ - Marcais, G: la Benberie Musulmane et L'Orient aumoyen ages, Paris, 1964.
- ٦٣ - الماوردي: الأحكام السلطانية، القاهرة ١٩٦٠.
- ٦٤ - مجلة الوثائق، ج١، الرباط ١٩٧٦.
- ٦٥ - مجهول: نبذة عن كتاب التاريخ ٩.
- ٦٦ - مجهول: الاستبصار، الاسكندرية ١٩٥٨.
- ٦٧ - مجهول: تاريخ مدينة فاس، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٤٤١٩ ح.
- ٦٨ - مجهول: نبذ تاريخية من أخبار البربر في القرون الوسطى، الرباط ١٩٢٩.
- ٦٩ - مجهول: مفاخر البربر، الرباط ١٩٣٤.
- ٧٠ - محمد أركون: تاريخية الفكر العربي الإسلامي، بيروت ١٩٨٦.
- ٧١ - محمد الطالبي: الدولة الأغلبية، بيروت ١٩٨٥.
- ٧٢ - محمد حباتي: خصائص المدن المغربية في عصر الدول المستقلة، رسالة

ماجستير - مخطوطة.

- ٧٣ - محمد حسن الزين: الشيعة في التاريخ، بيروت ١٩٧٩.
- ٧٤ - محمد عابد الجابري: العصبية والدولة، الدار البيضاء ١٩٨١.
- ٧٥ - محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، القاهرة ١٩٦٩.
- ٧٦ - محمود إسماعيل: الأغالبة، فاس ١٩٦٨.
- ٧٧ - محمود إسماعيل: الحركات السرية في الإسلام، فاس ١٩٧٧.
- ٧٨ - محمود إسماعيل: مغربيات، فاس ١٩٧٧.
- ٧٩ - محمود إسماعيل: سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، ج١، ٢، الدار البيضاء ١٩٨٠.
- ٨٠ - محمود إسماعيل: مقالات في الفكر والتاريخ، الدار البيضاء ١٩٧٩.
- ٨١ - محمود إسماعيل: الخوارج في بلاد المغرب، القاهرة ١٩٨٤.
- ٨٢ - محمود إسماعيل: فكرة التاريخ بين الإسلام والماركسية، بيروت ١٩٨٨.
- ٨٣ - المرتضى: المنية والأمل، حيد آباد ١٣١٦هـ.
- ٨٤ - Mercier: Histoire del'Afrique Septentrionale, Vol.1, Paris, 1988.
- ٨٥ - المسعودي: مروج الذهب، ج٣، القاهرة ١٩٦٤.
- ٨٦ - المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، لندن ١٩٠٦.
- ٨٧ - الملطي: التنبيه والرد علي أهل الأهواء والبدع، القاهرة ١٩٤٩.
- ٨٨ - موريس لومبار: الذهب الإسلامي من القرن الثامن حتى القرن الحادي عشر الميلادي، فصل في كتاب «بحوث في التاريخ الاقتصادي»، القاهرة ١٩٦١.
- ٨٩ - Motylinski: Chronique d'Ibn Saghira Sur Les Imams Rostimides de Tehart. Ates du 14 Congrès internationale des Orientalistes, Alger, 1905, Vol.3, Part 2.
- ٩٠ - النونجتي: فرق الشيعة، بيروت ١٩٨٤.

٩١ - النويري: نهاية الأرب، ج ٢٢، ٢٦ مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٥٤٩ معارف عامة.

٩٢ - هوبكنز: النظم الإسلامية في المغرب، تونس ١٩٨٠.

٩٣ - ياقوت: معجم البلدان، ج ١، بيروت ١٩٥٦.

٩٤ - اليعقوبي: تاريخه، ج ٢، النجف ١٣٥٨ هـ.

٩٥ - اليعقوبي: البلدان، ليدن، ١٨٩٤.